وجوه الجواز النحوي وعلاقتها بسياق الحال

إعداد

عُلا محمد مسلم ضهير

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع ..... التاريخ .....

المشرف

الأستاذ الدكتور: نهاد الموسى

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في
اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا
الجامعة الأردنية

آب ٢٠٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ 2001/8/15 وأجيزت

أعضاء اللجنة	التوقيع
1- الأستاذ: نهاد ياسين الموسى (رئيساً)	.....
2- الدكتور: إبراهيم محمود خليل (عضواً)	.....
3- الدكتور: عبد الله نايف عنبر(عضواً)	.....
4- الدكتور: عبد الحميد مصطفى السيّد(عضواً)	.....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إهداء

إلى أبويّ أحن إلى دفئهم..
وتوق الرضى ..
وإلى آباء أعتز بالتتلمذ عليهم..
ورجع الصدى..
وإلى نخلة ساقطت عليّ عذب الجنى..
وزنابق.. أغدو بهم .. طول المدى..
شكراً لأنكم كنتم... حتى أكون !

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

أتقدّم ◻ ممتنة ◻ بجزيل الشكر وخالص التقدير إلى كل من كان سبباً في إنجاز هذه الأطروحة، كل من أعانني بنقد أو توجيه أو نصح أو دعاء ..وكل من كان معي في الضيق والسعة.

أما الشكر الخاص والامتنان المتّصل فلأستاذي الكريم ومشرفي: الأستاذ الدكتور نهاد الموسى.. وليست كلماتي كافية لأن تُزجي له تقديري واحترامي ووفائي ودعائي..

والشكر كله لأعضاء لجنة المناقشة الذين تفضّلوا بالموافقة على قراءة أطروحتي وتقويمها بأنظارهم ومساءلتهم وفائض علمهم..

وأما من أودّ أن أُهدي لهم عرفاني وإخلاصي فأساتذتي في تخصص العربية.. أخص منهم من ملأني بحب اللغة والهيام بأوديتها الشائقة، من ابتدأ بي هذا الدرب في جامعة الإمارات العربية المتحدة، ومن أعانني على استكمال ما بدأت في الجامعة الأردنية..

وأختم بما بدأت به بالشكر الموصول لكل من كانت دراستي على عينه .. أو مدّ لي يده.. أو حرّك لي بالدعاء والابتهال روحه وقلبه..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتوى

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
إهداء	ج
شكر وتقدير	د
فهرس المحتوى	هـ
ملخص باللغة العربية	ح
المقدمة	١
الفصل الأول : الجواز النحوي	**٧**
- مدخل حول بنية الجملة العربية	٨
- إعادة الترتيب	١٨
• في الجملة الاسمية	٢٠
• في الجملة الفعلية	٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الحذف ٢٨
- في الجملة الاسمية ٣٠
- في الجملة الفعلية ٣٢

- الفرق بين الأحكام الواجبة والجائزة ٣٥

الفصل الثاني : سياق الحال ٣٩

- مدخل في الحد والمفهوم ٤٠
- في الدرس اللغوي العربي القديم ٤٢
- في الدرس اللساني الحديث ٥٢
- في البنية والمكونات ٦١

الفصل الثالث : الجواز النحوي وعلاقته بسياق الحال ٧٠

- مدخل حول سياق الحال بوصفه أصلا في عمل النحاة ٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- المتكلم مجوّزا
  - في النظم ٧٤
  - في الإعراب ٨١
- المخاطب مجوّزا
  - في النظم ٨٣
  - في الإعراب ٨٦
- المحيط الخارجي مجوّزا
  - في النظم ٨٧
  - في الإعراب ٩٠

الخاتمة ٩٣

قائمة المصادر والمراجع ٩٦

الملخص باللغة الإنجليزية ١٠٤

٥٤٥٥٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملخص

(وجوه الجواز النحوي وعلاقتها بسياق الحال)

إعداد: عُلا محمد مسلم ضهير

إشراف: الأستاذ الدكتور نهاد الموسى

تناول هذه الأطروحة المعنونة بـ" وجوه الجواز النحوي وعلاقتها بسياق الحال " موضوع الجواز النحوي، وهو جانب من الأحكام النحوية التي زخرت بها المصنفات التراثية للنحاة العرب الذين وصفوا وجوه الكلام وقعّدوا للغة من خلاله، هذا الحكم الذي اتخذه كثير من صور النظم أو الإعراب في بناء الجملة العربية بناء يخالف البنية الأساسية للجملة المطابقة لأصل القاعدة، وإذ تتعدد الأسباب التي تدعو الجملة العربية إلى الخروج على أصل القاعدة؛ فقد تخصص البحث في موضوع الجواز في هذه الأطروحة في واحد من هذه الأسباب، وهو المسمى بـ" سياق الحال" Context of Situation . أو ما كان يطلق عليه القدامى لفظة المقام أو مقتضى الحال أو الحال المشاهدة.

وقد جاءت هذه الأطروحة - بناء على ما تقدم - في فصول ثلاثة، اختص الأول بالجواز النحوي حكما في كتب النحاة، واتخذ الفصل الثاني " سياق الحال "، وتتبعه في الدرس اللساني قديمه وحديثه، موضوعا له، أما الفصل الثالث فكان للنظر في العلاقة بين الفصلين

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السالفين، فقد تلمس الوجوه الجائزة في التراث النحوي العربي والتي تعلق تجويزها بسياق الحال في أركانه المختلفة.

وكان من همّ البحث أن يقارب المشروع النحوي التراثي من خلال أنظار لسانية استقرت في الدرس الحديث في نظريات ومدارس الوظيفية وعلم اللغة الاجتماعي، والكشف - من بعد - عن مظهر تجلى بموضوعية تبرأت من القسر أو التعسف، هذا المظهر أعني به الإضاءات الفائقة، والإلماحات الذكية التي كانت في جهد النحوي القديم في وصفه لمبانيه وضبطه لقواعده، هذه الإشارات التي تكاد تنطق بالنظرية كاملة التي نضجت واستوت عند من جاء من بعد ابتداء بدي سوسير ومروراً بفيرث، وانتهاء بالوظيفيين الجدد والتداوليين ومن سار على نهجهم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في البدء

الحمد لله جلّ وعَلا، ذي الأسماء الحُسْنى والصّفات العُلا، والصّلاة والسّلام على خير الوَرى، سيّدنا محمدٍ وعلى آله وصحْبه ومن اهتدى. وبعد...

لا يزال التراث النحوي العربي إلى يومنا هذا يُشَكّل مَرجعاً مُشْكِلاً للباحث المختص، يُعدّ مرجعاً من خلال صدور كثير من الدراسات والأبحاث عن منبعه الثرّ الأصيل، ويعدّ مُشْكِلاً لأسباب تتزايد عند محاولة حصرها؛ فهو مُشْكِلٌ في تنوّعه وثرائه، ومُشْكِلٌ في تمدده واتساعه، ومُشْكِلٌ في عدم الكشف عن منهجه في الوصف والتقعيد. هذه الإشكالات تتبدّى بجلاء عند محاولة مُقاربته في مسألة من مسائله، أو زاوية من أنظاره. حيث نجد المسائل المُفترِقة تتداخل فيما بينها باتّساق يقوم بين الخفاء والجلاء، فنكاد نبصره، ولا نبصره. ونراه في أصوله يصدر عن ملاحظ نجد لها اليوم أسماء؛ بيد أنه لم يُسْمِها. وهكذا يظل المتلمس للتراث النحوي المستَبْطِن للدرس اللغوي الحديث، يسعى بين أفياء يشعر أنه فيها ابن قريب، ولكنه متى حاول النطق أو الكلام، ندّت عنه لغةٌ تُفارق تلك اللغة في دلالاتها، وإن ملئت بأصواتها وأجراسها.

ولما كان الوصول إلى مقاربة تلك الأصول المُحكمة التي صدر عنها النحاة العرب القدماء في وصفهم الظاهرة النحويّة وتفسيرها ممهوراً بالاستضاءة بالأنظار اللسانية الحديثة، فلا بأس من اطّراح فكرة تنازع الفضل بين ماضٍ لم يسعفه التأطير بمنهجيّة حاسمة لمادّة غزيرة ممتدة، وحاضرٍ لم تستجدّ له المادة لتحتكم لما توافر من المنهج والنظرية. ولا بأس إذن من

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إعادة النظر في التراث النحوي العريض بُغية توصيفه وتصنيفه، ليقْرُب مُتناولاً من الفهم الحديث للمادة والمنهج وليغدو حافزاً لابن اللغة اليوم على استعادة ثقته بكفاءته وكفايته في تسديد القول وتمحيص النظر، بما لا يتخالف مع طبيعة الفكر الإنساني بشكل عام في قديمه وحديثه.

وتأتي أطروحة "وجوه الجواز النحوي وعلاقتها بسياق الحال" منسجمة مع الفكرة سابقة الطرح، حيث تسعى هذه الدراسة لتتبّع إحدى مسألتين رئيستين في الأحكام النحوية (الوجوب والجواز)، هذه الأحكام التي بخروجها على أصل القاعدة أو الحدّ مثّلت مساحة واسعة في الأبواب النحوية، ومن ثمّ تعددت الضوابط التي تحتكم إليها للمحافظة على السلامة أو الصحة اللغويّة، ومن هذه الضوابط "سياق الحال" الذي تعتمده هذه الدراسة ضابطاً متعيّناً في توجيه أحكام الجواز المختلفة.

إن القول بتأثير المقام الخارجي – أو ما يسمّى بسياق الحال – على الصّحة اللغوية في تراكيبها ودلالاتها، هي إحدى المقولات الأكثر شيوعاً في النظر اللساني الحديث، بخاصة ما ينبثق عن المدرسة السياقية واللسانيات الاجتماعية والوظيفيّة. وليس الانتقال اللساني الحديث من علم لغة الجملة إلى علم لغة النص إلا بسبب مراعاة السياق المقامي للنص بشكل بارز، وما يتصل به من أحوال المنشئ والمتلقّي والظروف الخارجية الأخرى.

والباحث الناقد في التراث النحوي العربي لا تُخْطئه البصيرة في المثول أمام نصوص كثيرة – رغم تناثرها – قد اتخذت مَلْحَظ سياق الحال ضابطا في التقعيد لأوجهٍ من القول

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مختلفة، ومحدداً في وصف الظواهر النحوية – كثيرٍ منها – وكأنّ النحاة في هذه النصوص – كما يخطر لذهن الباحث – يستَبطنون رؤية معيّنة يوجّهون القول بحسْبِها، وإن كانوا في كثير من الوقت لا يصرّحون.

ومن هنا تتّجه هذه الدراسة، لتصفّح التراث النّحوي العربي، مُجيلَة النّظر في الأحكام النحوية التي اتخذت صفة الجواز، والبحث عن مدى تأثير " مراعاة المقال للمقام" أو "مراعاة الكلام لمقتضى الحال" على توجيه الحكم بالجواز، وما ينجم عنه من مخالفة الأصل والخروج عليه. وتسعى الدراسة من خلال هذا إلى الإجابة على سؤال: هل يُمكن أن يعدّ سياقُ الحال أحدَ الضوابط التي اعتمدها النحاة العرب في القديم في تقعيدهم للظاهرة النحوية، والتي صدروا عنها في وصف المنطوق الكلامي وضبطه؟ وبخاصة في دراسة حكم الجواز نموذجا للظواهر أو الأحكام النحوية المقصودة.

ولِتَمَثُّل ما سبقت الإشارة إليه تأتي هذه الدراسة في فصول ثلاثة.

الفصل الأول

الجواز النحوي:

كان بدء الرسالة بهذا الفصل مما يستوجبه منطق العمل، حيث تعرّض الفصل لدراسة بنية الجملة العربية، وما تحتكم إليه من موجّهات في ضبط عناصرها في علاقاتها، وكيف تمثّل للنحاة منهجٌ ينفذون من خلاله إلى محاكمة اطّراد اللغة في أنساقها المتواترة، وردّ ما فارق هذا المطّرد إلى بنية أساسية لا يُقبل أن يُشَذَّ عنها إلا مع الاضطرار إلى سوق المبررات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العائدة إلى أحد نوعين من السياق، إما المقالي أو المقامي، وهي ما تسمى القرائن. وتوقّف الفصل إلى أبرز ظواهر الخروج على الأصل في بنية الجملة العربية، ونعني بها ظاهرتي تغيير الرتبة والحذف، والصور التي تأتي عليها الجملتان الاسمية والفعلية حين تطرأ عليهما هذه الطوارئ، واختتم الفصل بإشارات تلمح إلى فروق قائمة بين نوعي الأحكام المتفقة في الخروج على الأصل المطّرد، والمختلفة في الوجوب والجواز.

الفصل الثاني

سياق الحال:

يُعرّف هذا الفصلُ من الدراسة بالجزء الثاني من العنوان، والمتعلّق بسياق الحال، ويُعَيّن الفصل في مُفتتحه تعريفاً لمصطلح سياق الحال **Context of Situation**، يفترق به عن أنواع السياقات المختلفة وبخاصة سياق المقال، ويهتم الفصل من بعد بالتمثيل لأشكال هذا التّصور عند النحاة العرب القدماء، وما تشكّل لهم من مكوّنات متناثرة تشبه في مجموعها ما اكتمل لدى أصحاب المدارس اللسانية الحديثة من النظريّة، التي تُعنى باجتماعية اللغة، وبخاصة ما كان من المدرسة السياقية بزعامة فيرث. وهذا ما عَرَضتُ له جزئيةٌ تالية من الفصل، سَعَتْ إلى مقاربة الدرس اللساني الحديث في تطوّره نحو معالجة اللغة ضمن سياقاتها الحيّة، وعدم عزلها كما كان يفعل التحويليّون. واختتم الفصل بالحديث عن بنية النظرية الاجتماعية في دراسة اللغة، من حيث كونها نظرية كونية لا تنحصر في زمان معيّن، وإنما يمتلكها من ينظر إلى اللغة باعتبار قدرتها الجمعية والتواصلية والتداولية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

الجواز النّحوي وعلاقته بسياق الحال:

يحمل هذا الفصل بؤرة الموضوع، ويجسّد صورةً لعنوان الأطروحة، فبعد أن تحدّث كل من الفصلين الأولين عن طرفي العنوان، يأتي هذا الفصل للحديث عن العلاقة بينهما، فبعد التوطئة بالكلام على سياق الحال بوصفه أصلاً مرعيّاً في عمل النحاة الأوائل، يأتي الاستدلال على هذا بالوقوف إلى مكوّنات سياق الحال متتابعة، وتلمّس أثر كلٍّ من هذه المكوّنات على بنية الجملة العربية في نظمها وإعرابها، وذلك من خلال استعراض أمثلة دالّة من أعمال النحاة وتقريراتهم. واكتُفِي في كلّ موطن بما تيسّر من الأمثلة الموضّحة دون استكثار يُفضي إلى التّكرار.

وتذيّل الرسالة بخاتمة تشير إلى أبرز النتائج التي توصل البحث لها، وتلخّص أهمّ الإشارات التي أراد البحث أن ينوّه عليها.

ومما يحسن ذكره في هذا التقديم، أن الدراسات الجامعية على وجه الخصوص، والبحثية في اللسان العربي بشكل عام، بدأت بالأخذ على عاتقها النظر إلى التراث العربي الممتد من خلال الأنظار اللسانيّة املحدّدة، أخص بالذكر النظر الاجتماعي أو الوظيفي والسياقي، وعلى أخرة ظهرت عدّة دراست تتبنى هذا المنهج، أذكر منها تلك التي أفدت منها في بحثي سواء بالاطلاع أو الاقتباس، من مثل دراسة إبراهيم خليل: السياق وأثره في الدرس اللغوي، ودراسة موسى إبراهيم الشلتاوي (دور السياق في منهج التحليل اللغوي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عند سيبويه) ، ودراسة خلود العموش (الخطاب القرآني – دراسة في العلاقة بين الخطاب والسياق: مثل من سورة البقرة)، وهذه الدرسات على ما أفدت منها إلا إنها تمتح أصلا من دراسة أعمق في القصّي، وأسبق في الكشف، هي دراسة الأستاذ نهاد الموسى، والموسومة بـ(الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية) وهي دراسة نابهة سابقة، أصبحت كالمصدر الأساسي لكثير من الدراسات التي توجّه الوجهة ذاتها .

وهذه الدراسات وإن أفاد منها البحث بصور مختلفة إلا إن منحى الدراسة أفسح لها أن تتخذ مشروعيّة في الطرح، حيث أرادت الدراسة أن تشير إلى وجهة معيّنة من النظر، تتعلّق بأثر سياق الحال على وجوه الجواز النحوي تحديداً – كما سبقت الإشارة – وهذا فيما أعلم ، درس جديد جدير بأن تفرد له دراسة مستقلّة.

إن سؤال البحث حول حقيقة تعيّن أثرٍ لسياق الحال في الدراسات اللغوية القديمة بات مما لا يشكك فيه، وأصبح تعيّنه مما هو ماثل ومستدلّ عليه بالأمثلة الناصعة. وأما أثره على وجوه الجواز النحوي تحديداً فهذا ما كان من همة البحث أن يبرهن عليه، وأما أن يكون البحث قد استوفى الأمثلة الدالّة في هذا الباب فهذا ما لا يدّعيه باحث، فكلّ نظر لا يبرأ من أن يعلو عليه نظر من جديد .ولكنه حاول أن يكتفي بالعبارة الموجزة، والأمثلة الناجزة للتدليل على الفكرة المُدركة المتعيّنة في الوعي والفهم.

وهذا جهد المقلّ مهما استكثر، وأما ما كان فيه من صواب فالفضل فيه لمن بصّرنا بالصواب، وأما ما اعتوره من نقص فهذا من جهل الإنسان، وما التوفيق إلا بالله. . .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول:

وجوه الجواز النّحوي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مدخل : حول بنية الجُملة العربيّة

- في بِنية اللغة:

قــد يكون من نافلة القول الإشارة إلى اللغة العربيّة بوصفها بناء ائتلافيا، أو بنية تواضــعت علــيها مجموعةٌ إنسانية، مُتخِذة إيّاها وسيلة أولى وأوليّة من وسائل التّواصل والــتكامل المجتمعي، واللغة – أي لغة – بما هي بنية، تَسْتوجِب أن يشتدّ لها نظامٌ محكم، تَتراسل من خلاله جزئياتُها، وتَنتظم عليه أسسُ الحيويةِ فيها.

واللغــةُ العربيّة – شأن سائر اللغات – امْتاز لها هذا الهيكلُ من الأحكام التي تقيد انضــباطها، وتُبِينُ عن صورتها، وقد جهد أبناء اللغة من علمائها على تحمّل هذه المهمّة، فــأخذوا عــلى عــاتقهم منذ فترة مبكرة في تاريخ العربيّة النهوضَ بالتقعيد للغة وضبط مسائلها، ليس مخافةَ اللحن من أبنائها والوافدين عليها – كما هو مستهلك فحسب – بل استشعار قيمةٍ علمية حقيقية، ووعي ضرورة مُلِحّةٍ تبتدئ منذ اللحظة التي نظروا فيها إلى اللغة علماً يجدر دراستَه في ذاته ولذاته.

ولا أظــنه إلا تزيّدًا أن يذهب بي القول للحديث عن وضع النّحو العربي، وابتداء نشــأته، والحديــث عــن تلك الأصول التي الْتزمها النّحاة في وصفهم للظاهرة النّحويّة وتقعــيدها، إلا أن ممــا يعني مقامَ القول هنا الإلماحُ إلى مَلْحَظ هام في هذا الباب، وهو ارتباط اللغة بمحيطها الاجتماعي، هذا الارتباط الذي استشعره النّحاة الأوائل في ضبطهم للغة وأصولها، فهم في إقامتهم لصَرْحِهم النّحوي اللغوي استبطنوا بما يشبه الحَدْس ما للغة مــن طبيعةٍ اجتماعية تواصلية، ولا يَخفى ما للطبائع المرْكوزَة في أي كائن من أثر يظهر ولو بعد حين، ويَسْتتِر ولكن لا يندثر.

أشير إلى هذه الطبيعة، لأن غيرها من الأصول كان مما تعّين ماثلاً في بصيرة النّحاة لا يحــتاج إلى مــزيدِ تأكــيد، حتى إنهم إذْ أقاموا للغة بنيتَها، هيّأوا لها من الحواشي التي تعضدها ما يظهر فيها أثرُ أصولِهم المَرْعِيَّة علما وحدسا...

إن اللغة في بنية قواعدها، أو في نحوها، استطاعت – بحنكة نحاة العربيّة وفطنتهم– أن تــبدو مــترعة بالحــياة، مُنْفَتِحة على الأنحاء والأحياء، تَطوي في قرارها أصالةً تحفظ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لـــلحقائق أماكنَها، وتتزين في كل تجلياتها بما يؤكّد سعتها وصلاحيَّتها وامتدادها. إن ما ســـبق يعـــني أن اللغة في عمقها لها من الاتِّساق والاطّراد ما يحفظ لها ميِّزاتها، ويُحلّي لها وجهاً تُعرف به، وتُحاكى من خلاله، ولا يمنع ذلك أن يكون لها من التحقّق والتجدد ما يمنحُ أبناءها سعةَ القول وِفْق مُقْتضيات حاجاتهم، ومقاماتهم المُسْتحدَثة كل حين..

وقـــد يكـــون مـــن المُسْـــتطرَف أن نشـــبّه نحو العربيّة بطوق مطاطي ! يتّسع لاستخدامات شتى، بيد أنه يعود في كل حال ليستقرّ على شكله الأصلي، ولابن اللغة في نطاقه أن يَرتجل من مذاهب القول ما يدعو إليه القياس، أو كما كان يقول أبو الفتح ابن جنّي[١]، ويقول أيضا في وصفه النّحو إنه علم مُنْتَزَعٌ من " استقراء هذه اللغة فكُلٌّ من فُرِقَ له عن علة صحيحة وطريق نَهْجَةٍ كان خليل نفسه وأبا عمرو فكره..."[٢].

إن إضاءات أبي الفتح السابقة، وإن كان أوْردها في استدلاله حول تَسَمُّح اللغة في قياساتها بما لا يشذّ أو يخالف مطّرداً، إلا إنه يمكّننا بها من استشعار ملاحظَ دقيقة، فالنّحو خلاصـــةٌ لكـــلام العرب المُسْتقرَى، وكلُ متكلّم باللغة يُمكنه أن يكون صاحبَ علة في تصـــرّف، أو ذا مذهب في القول، ما لم يشذ عن أصول صحيحة، وطرق نَهْجة، لها من الوضوح والسعة ما يتيح له أن يكون هو الحكم على نفسه.

ولعلّـــه يســـتقيم لنا الآن – بعد هذه التوطئة – أن نُقارب النّحاة في مشروعهم المتسَمِّح دون إخلال، الصارمِ بلا تضييق، فنذهب ابتداء إلى دراسة الجُملة العربيّة، والنّظر إلى جهدهـــم فـــيها لتبيّن أبعاد فكرهم في بنائهم النّحوي إجمالاً. فمن المعروف أن نحاة العربيّة في مجملهم اتخذوا من الجُملة حقلاً لدراستهم، وحلقةً رئيسة في صيْرورة عملهم..

والجُملة العربيّة – كما سائر الجمل – لا تَروم إلا أن تتخذ نَسَقا مخصوصاً، تمضي علـــيه في البـــناء اللغـــوي المطّرِد، هذا النسق القارّ هو الذي اعتمده النّحاة في تَوصيفِهم للأبـــواب الـــنّحويّة المختـــلفة، وذلك حين لحَظوا أن للجملة العربيّة – بشكليها اللذين أقروهما– سنةً في الانْبناء، فالجُملة العربيّة تركيبٌ أو إسناد بين ركنين أساسيين، يتواشجان باطّراد.

---

[١] : ابن جنّي، الخصائص، ١/١٨٩.

[٢] : ابن جنّي، الخصائص، ١/١٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالاسمية منهما تنبني كالآتي:

مبتدأ + خبر أو مسند إليه + مسند

والجُملة الفعلية أيضا:

فعل + فاعل أو مسند + مسند إليه

ينتقل بينهما المتكلّم باللغة دونما مُفاضلة. ولا يقتصر القول أو الكلام في تحقّقه على هذين الرُّكنين، وإنما يلحق بكلٍّ من الجملتين لواحِق شتّى من فضْلات أو ظروف يقتضيها إتمامُ المعنى الذي تستدعيه علاقة الإسناد. ولا يعني الحديثُ عن علاقة للإسناد بما هي نظامٌ يؤطّر تشكُّل الجُملة، أنه نظامٌ نهائي أو تعيّنٌ واحد، فنظم الجُملة ليس نظماً جامداً بطبيعة الحال، بل هو نظام تَعْتريه مرونة تسمح بالخروج على البِنْية الأساسيّة للجملة، ويكون الخروج إما بحذف عنصر من العُمَد، أو بتغيير التّرتيب الأصلي لمواقع العناصر، أو حتى بزيادة عنصر جديد يُمدُّ في بناء الجُملة.

والكلامُ على بنية أساسية في الجُملة يُفْضي بالضرورة للتَّنبُّه إلى بِنى أخرى تَعْتَور النّظام اللغوي، وهي ما تتبدّى بتلك الخروجات المُفارِقة للأصول المُجرّدة التي يفترضها كلُّ نظام في تنظيره، فالبِنْية الأساسيّة هي نظام لغوي تجريدي ثابت يَتَصوّر التركيب الأوليّ للجملة، والذي يُعد بناءُ الجمل تنفيذاً حياً واقعيا له. وذلك بنطقه فعلياً مفارقاً للفكرة النّظريّة[١].أو للتركيب الأوّلي.

وقد أعطى النّحاة لهذه الخروجات – المكوِّنة للبنى المُسْتَحدَثَة – مشروعيةً، فهم يَنْسِبُون هذه الوسائل في التّجاوز عن البِنْية الأساسيّة إلى العرب أنفسِهم، وكأنّهم بذلك يريدون أن يقولوا إن المتكلّمين قد يَبتعدون في الكلام المنطوق وظاهرِه عن البِنْية الأساسيّة أو الأصل، ومع هذا فهم لا يُخِلّون بالقاعدة[٢]. إلا إن الكلام الفعلي أو المنطوق لا يمكن أن تؤسس عليه نظرية لغوية مُتكاملة مهما تنوّعت كميةُ هذا الكلام الذي تجري عليه

[١] : انظر حول هذا المعنى: محمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجُملة العربيّة ،١٩٠.

[٢] : انظر حول هذا المعنى: محمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجُملة العربيّة ، ٢٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدراســـة، بل يمكن من خلاله النفاذ إلى البِنْية الأساسيّة، فالغاية من وراء أية نظرية لغوية معينة هي إنتاج الجمل الصحيحة في تلك اللغة[١].

إن اللغة بما هي ظاهرة إنسانية لا يمكن أن تخضع لقوانين مطلقة، بل لابد من بعض الظواهـــر التي تخرق القوانين العامة.[٢]فتطوِّع هذه الظواهرُ اللغةَ لتؤدي ما وُضعت له أصلا من أغراض التّواصل والإبانة.

- في المنهج:

ويَســـتدعي الحديـــثُ عن القواعد التطرقَ إلى منهج النّحاة الذي اتبعوه في نَسْج أحكـــامهم، ووصف ظواهرهم، وهذا بابٌ من القول على ما وقع فيه من اتّفاق كثير بين من أرّخ للنحو العربي، فإنه تَسامع من ورائه اختلافٌ في أحيان واضحة، فهل كان النّحاة في عمـــلهم على البنيان النّحوي دُعاة وصفٍ، أم رُعاة معيار، بصيغة أخرى، هل يُصنّف النّحويّون الأوائل في وصْفِهم للظاهرة النّحويّة وتقعيدها بوصفهم معياريّين أم بعدّهم من الوصفيّين؟

ليســـت تلـــك التســـاؤلات فحسب، بل يحملُنا النّظر في القواعد إلى محاولة تَبيّن موقعهـــا في العمـــل الـــنّحوي بين ابن اللغة الناطق بها سليقةً، ومن شَحذ أدواته لضبط شـــواردها، وحَشَد لذلك ما يطيق (وعياً وحدساً) من أصول لهذا الضبط. إن التساؤل عـــن تَسلْسل هذه العملية يبدو مُلِحّاً للوصول إلى نظرةٍ كلية في هذا الباب، فإنه يُقْبل في العـــادة " أن يفـــترض الباحثُ أن أمثلة الكلام تكون أولاً. وأن القواعد التي تصفها أو تفســـرها تكـــون ثانـــياً. وإذن فقد تكلّم العربُ كما تكلّم غيرُهم قبل أن يَضعوا قواعد كلامِهـــم"[٣]، ثم يُفضي بنا هذا القولُ إلى أفق مماثل، يَتجلّى فيه السؤال من جديد، ولكن هـــذه المرّة يقتسمُ الانتظارَ على طرفيه من قَعّد من النّحاة للغة مطّردة على ألسنة الناطقين بهـــا، ومـــن أصّـــل لتفْكير هؤلاء النّحاة في تقعيدهم، فالعادة تطّرِد أيضا في أنْ "يفترض الباحثُ أن كتب النّحو تكونُ أولا. وأن الأصول التي تُوضع وفقاً لها تلك الكتبُ تكون

---

[١] : محمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجُملة العربيّة ١٩٥ بتصرف.

[٢] محمود الحاسم ، التأويل النّحوي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ٣٣٣

[٣] : نهاد الموسى، نظرية النّحو العربي:١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً. وإذن فقد ألّفَ سيبويه والمبرّدُ وابن السرّاج قبل أن يَستخرج ابنُ جنّي وابنُ الأنباري أصولَ النّحو"[١]. إن سؤالاً مَشْروعا يُطرحُ في هذا السّياق:

فهـــل مادة الدّرس هي التي تحدد النّظريّة وتكيّفها، أم النّظريّة هي التي تحدد مادة الدّرس وتكيفها؟[٢]

وجـــريان العادة بمثل هذه الافتراضات في صيْرورة الدّرس النّحوي بين أدْمغَة أبناء اللغـــة وألسنتهم، إلى قواعد المتبصرين بهذا المنطوق المثال بالسّلائق، إلى من يكدّ الذهن ليتبصّر فهماً فوق تلك البصائر، هذه العادة في الصيْرورة المفترضة يمكن إعادة القول فيها بمجرد أن ينقدح في وهم متبصرٍ مثلُ شرر يشكك في أن يصدر أنباه النّحاة في عملهم عن غير أصول مرعيّة يستظهرونها لتوصيف هذا التشكّل الناضج من بناء القواعد.[٣]

– في النظريّة:

إن الـــنّحو العربي في مجمله، يتسم بخاصيّة قارّة، هي أنه علمٌ قياسي نظري. وهو قـــائم على قوانين وأحكام تقيّد التراكيب والجمل بالاسْتِقامة شَكلا ومعنى، وبه يَتَجنّب المتكلّم الاسْتِحالة في تَلفُّظه، ولئن بدا أن النّحاة لم يَصْدُروا عن نظرية نَحْويّة شاملة محكمة البـــناء العـــلمي، فالنّظر في تفكير أوائل النّحاة ناطق برؤية نموذجيّة في النّحو العربي يمكن الكشـــف عـــن مكوناتها ومنهجها وقوانينها العامة وأهدافها. وذلك متيسّر بتعدد القراءة والكـــتابة بلا انقطاع لتفهم تلك النّظريّة المتناسقة، وذلك النّظام المحكم البناء الذي على منهاجه وُصفت اللغة العربيّة.[٤]

وأيـــاً كـــان هـــو التّرتيب في عمل النّحويين للتوصل إلى ما يُرجّى من صياغتهم للقواعـــد، فإنه يُفترض أن القاعدة النّحويّة تصف وضع القواعد الكامنة في الذهن التي قد

---

[١] : نهاد الموسى، نظرية النّحو العربي:١٧

[٢] : عز الدين مجدوب، المنوال النّحوي العربي (قراءة لسانية جديدة)، ٥٦.

[٣] : للاستزادة انظر : نهاد الموسى: نظرية النّحو العربي: ١٧–١٨.

[٤] :المنصف عاشور : بنية الجُملة العربيّة بين التحليل والنّظريّة ١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اكتسبها المتكلّم والتي تجعله قادراً على استعمال لغته. ومنه نفترض أن مما يتعين على النّحو أن يكون قادراً على وصف السليقة اللغوية التي للمتكلم.[١]

هذا النّحو بما له من تراكم كبير من التحاليل على مستويات متعددة يطوي وراءه – دون مُمالأة – مساحات كبرى لسؤالات مُغيّبة، تُغْري بالاهتمام بها بُغْية انكشاف أفق طمـــوح يتّسع لتثبيت أقدام جادة تخطو نحو ارتياد أصالة التجديد من خلال استنطاق هذا الركام الثرّ، ما قاله، وما وراءه مما لم يقل.[٢]

إن مـــا سبق الخوض فيه من استطرادات حول هيْكلة العمل النّحوي وانبنائه، بعد الـــتوقف العارض لبنية الجُملة العربيّة، هو من الاسْتِطْراد الحاصل بالضرورة، فالكلام على بنـــية الجُملة يعني كلاما على نظام. "والنّظام في هذا التّصوُّر شيء تبنيه النّظريّة"[٣] . ولعلّ من أبرز القضايا إلحاحاً في ثنايا هذا النّظام المُشْكل قضية العمل النّحوي، وما ترتب على القول بالعامل من فضاءات مُنْداحَة للخلاف[٤]. إن القضية العاملية " مرتبطة أساساً بالنّظام والقاعدة، وفي هذا الخصوص نَتصوّر أن أي نظرية تُعنى بنظام المكوّنات تُلحق هذه الأخيرة بعنصر أعلى منها جميعها...والجُملة هي العنصر الأعلى الذي يتحكّم في التّرتيب، وباللغة العاملية الجُملة هي العامل الوحيد في هذا التّصوُّر النّحوي، هذا التّصوُّر حسابي لأنه قائم على اعتبار وجود نظام، وشيء بعد شيء، وعلى مُلاحظة وجوب النّظام المعين في الحالة المعينة"[٥].

وقد درجت الكتبُ النّحويّة بداية من كتاب سيبويه وفْق محور أول في تحليل النّحو وفصوله ووجوهه وفروقه وقوانينه، وذلك للنظر في الكلام ومجاريه النّحويّة في إطار نظرية جوهرية تتمثل في العلاقات التركيبية داخل الجُملة والملفوظ، بتوخي المعاني النّحويّة المتولدة عـــن نظرية الإعراب والعامل الأساسيّة. كما كان المنهج قائماً على مبادئ نظرية وقوانين اســـتنباط وقياس استقرائي يكوّن المعطيات النّحويّة الخاضعة للوصف والتحليل. والقراءة

---

[١] محمد حماسة عبد اللطيف ، النّحو والدلالة ، ٣٢

[٢] : للاستطراد حول هذا ينظر : أحمد العلوي : آية الفكر وكبرياء النّظر.١٨-٤٤

[٣] : أحمد العلوي : آية الفكر وكبرياء النّظر : ٢٦.

[٤] : للتوسع في هذا الموضوع انظر: السيد أحمد علي محمد، تسليط العامل وأثره في الدّرس النّحوي.

[٥] : أحمد العلوي : آية الفكر وكبرياء النّظر : ٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الـــنّحويّة توضح أن تفكير النّحاة كان مُتّصلا بنظام الجُملة أو بالكلام المفيد الذي يَحْسُن سكوتُ المتكلّم والسامع عنه، في غير إهْمال أو إغْفال للكلمة التي اعتبَروها من مكوّنات الكلام المفيد.[١]

ويعدّ الحديثُ عن القواعد من أهم ما يُلمح إلى وجود البِنْية النّظريّة في أي تشكّل مـــن الأنظمـــة، وكذلك ما يحصل في النّحو العربي الذي يأتينا بأنْماط شتّى من القواعد، فـــنقرأ أحيانا عن القواعد الأصليّة والقواعد الفرعيّة، فنَفْهم بالقاعدة الأصلية (أو قاعدة الأصـــل أو أصـــل القاعدة) تلك القاعدة السابقة على القيود والتّفريعات، كقاعدة رفع الفـــاعل ونائـــب الفاعل والمبتدأ، وتقدّم الفعل على الفاعل، وتقدّم الموصول على صلته وافـــتقار الحـــرف إلى مدخوله وهلم جراً.. وأكبر القواعد الأصلية على الإطلاق قاعدة الإفادة أ ي قاعدة أمن اللبس، وهي التي تقول: (الأصل في الكلام أن يوضع للفائدة) ثم يليها في الأهمية تلك القواعد التي تدور حول ما تتحقق به الإفادة من القرائن كقولهم[٢]:

١- الإعراب إنما دخل الكلام في الأصل لمعنى (قرينة الإعراب)

٢- الأصل في المبتدأ أن يكون معرفة، وفي الخبر أن يكون نكرة (قرينة بنية)

٣- الأصل في الصفة أن تَصحب الموصوف (قرينة تضام)

٤- لا يجوز تقديم ما يرتفع بالفعل عليه (قرينة رتبة)

ثمّ قـــاعدة أصـــل الوضع وهي تجريدٌ قام به النّحاة ليَصلوا بواسطته إلى الاقتصاد العـــلمي بتجنّب الخوض في أوابِد المفردات، وتلك نفسها هي الغاية التي يرمي إليها أصلُ القاعدة.[٣]

وعـــودا عـــلى بدْء، ينقادُ بنا القول إلى تلمّس اللغة في محيطِها، دون قطعها عن سِياقها التّواصلي الذي يمنحها من حقيقة الاكتمال ما لا يَتوافر لها منبتّة عنه. واللغة على هذا الوصف لا تنْفَكّ من أن تكون وليدة بعدين؛ داخلي وخارجي، يتّصل الأول بقواعد تكاد تكون ثابتة مطّردة تكفل بنى أساسية، ويسْتهدي الثاني بأبعاد محيطة تتسلل إلى تلك

---

[١] : المنصف عاشور : بنية الجُملة بين التحليل والنّظريّة ١٧.

[٢] : تمّام حسّان، الأصول، ١٤٠.

[٣] : تمّام حسّان، الأصول، ١٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القواعـــد لتمـــنحها سعة وفق ما تقتضيه الأقوال من مقامات، وهذا باب مُنْفَتِح على غير اطّراد.

وتبرز ظاهرة النّظم بوصفها نقطة التقاء بين مستوى المعاني النّحويّة المُجرّدة أو ما يُســـمّى بالوظائف النّحويّة – وهي مُتعلّقة بالبعد الداخلي للغة – والمقاصِد التي يريد ابنُ اللغـــة أن يُعـــبّر عنها في مواقفه ومقاماته المختلفة، هذا الالتقاءُ يُتيح للمعاني النّحويّة أن تَتشـــكّل تشكلاً مخصوصا تَمتَزِج فيه الوظائفُ بالمقاصد، وفيه تُستَنْفد ظواهر النّظم كلها بأقصـــى طاقاتهـــا، وكما سبق أن تبين أن ظواهر النّظم تعد من أشكال العُدول عن البِنْية الأساسيّة للجُملة في العربيّة، أو ما يعرف بالأصول المُجرّدة التي وضعها النّحاة في دراستهم للأبـــواب الـــنّحويّة المختلفة، إلا إن العُدول عن المطّرِد الغالب يَتّخذ صورتين تتباينان في تَواردِهما على بنية الجُملة من حيث دَواعيهما ولُزومهما، فيكون عدولُ الجُملة عن أصلها المجرّد إما عدولا واجِبا، أو عدولا جائزا .[١]

فأمـــا الواجِب فهو ما يرتبط بعناصر النّظريّة النّحويّة – أي في بعدها الداخلي – ووصف العلائق بين العامل والمعمول.

وأمـــا الجائز فيرتبط في معظم صوره بالمعنى، فيرتد إلى مقاصد مخصوصة ودلالات محددة.

وعلى الرغم من أن هذين القسيمين يجتمعان في كونهما عدولاً عن البِنْية الأساسيّة لـــلجملة العربـــيّة ؛ إلا إن الأول منهما حدّه النّحاة بمواقع مخصوصة محددة، تعرّف عليها الـــنّحاة بما صدر عنه ابنُ اللغة نفسُه، وعليه كان توصيفُهم للقاعدة النّحويّة في كل باب تَـــرِدُ فـــيه، ولما كان وروده ثابتا مُتكرّرا انبنى عليه حُكم الوجوب في تحديد العَلاقة بين العوامل ومعمولاتها.

وأما القسم الثاني – أعني العُدول الجائز – فقد كان فضفاضاً في سِعته، غير مُتَّسِق في تـــوالي وروده، بل يَستدعيه المعنى، ويَستحْضره المقام، لذلك لم يكن ممكنا تأْطيرُه وفق قواعـــد محدودة، أو مواقع مخصوصة، فالمعاني والمقامات كثيرة متجددة، فاقتصر النّحاة في هذا الباب على ربطهم بين مظاهر مخْصوصة في نظْم الجُملة وضوابط تحكمها وتُسوِّغها.

---

[١] : لطيفة النجار: منزلة المعنى في نظرية النّحو العربي: ١٥٥- ١٥٦بتصرف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فـــالحذف مرتبط غالباً بالحال المشاهدة، وعلم المخاطَب والسّياق، والزيادة ترد في أكثر صُورِها إلى قصد المتكلّم ورغبته في التّوكيد والتأثير في السامع، وتغيير التّرتيب فمَردّه أيضا إلى قصد المتكلّم ورغبته في التركيز على العنصر المتقدّم ولفت الانتباه إليه...[١]

والحديـــث عن الحذف أو الزيادة أو إعادة التّرتيب يَقتضي التّسليم بمبدأ الأصلية والفرعـــية (السابق الذكر) في اللغة، أي لابد من وجود تركيب أصلي أو صيغة أصلية اعتَراها الحذف أو الزيادة أو تغيير ترتيب عناصرها، وهذا الأصلُ هو ما يسميه التحويليّون البِنْـــية العميقة، ويحاولون الوقوف عليه من خلال عناصر البِنْية السطحية، وتتضح عناصر النّظريّة بهذا الأصل المفترض في التراكيب[٢]، أو ما تسمّى بالبِنْية الأساسيّة للجملة العربيّة؛ التي يتطلب الوصول إليها " وكشف نَواميسِها المُجرّدة إدراك مرتبة التفكير المجرّد في شأن الكلام باعتباره ظاهرة بشريّة كونيّة.[٣]وعليه يذهب القول بالعديد من الباحثين إلى رؤية أن "الصّـــناعة النّحويّة يجب أن تخضع للمعاني ، لا أن تخضع المعاني لها. لأن مقصود الكلام واحـــد لا يختلف، وأما وجوه الإعراب فتحمل معاني متعددة، وقد كان سيبويه لا يَصرفُه عن المعنى أيُّ صارف، ولا تَشْغَلُه الإعراباتُ المطّرِدة عن الالتفات إليه التفاتاً تتضاءل أمامه كـــلُّ الوجـــوه الجائزة ما دامت لا تُوافق ما عليه الحال".[٤]"فاللغة ملكُ المتكلّمين لا ملك الـــنّحاة، والعُدول عن أصل القاعدة كالعُدول عن أصل الوضع".[٥] تَحكُمُه إرادةُ مُتعاطي اللغـــة. "والجُملـــة ضربٌ من الفضاء الرّحب تدور فيه حركةٌ بين العوامل والمعمولات. وخلالها تتولّد المركباتُ والمعاني الوظيفية المتنوعة نحو: الفاعلية والمفعوليّة".[٦]

وهنا يمكننا الخُلوص إلى إن ما كان يهم النّحو القديم هو الحكمُ أولا، فالهدف من العملـــية النّحويّة بأكملها هو البحث عن الحكم الصحيح وتمييزه عن الحكم الباطل الذي يمكـــن أن يعمل به المتكلّم. فالعربي الذي كان يتكلم العربيّة سليقة كان يصدر الأحكام

---

[١] : انظر لطيفة النجار : منزلة المعنى في نظرية النّحو العربي: ١٥٧-١٥٨.

[٢] : طاهر سليمان حمودة: ظاهرة الحذف في الدّرس اللغوي ١٧.

[٣] : عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربيّة:٢٤.

[٤] : عبد العزيز عبده أبو عبد الله: المعنى والإعراب عند النّحويين ونظرية العامل:٣١٣/١. ويستفاد في هذا الشأن بالنّظر في: ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، الباب الخامس، ٤٩٧ وما يليها.

[٥] : تمّام حسّان، الأصول، ١٥٢.

[٦] : المنصف عاشور: نظرية العامل ودراسة التركيب، ٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما يصدرها الفقيه... فعلمُ العربيّة طائفةٌ من الأحكام التي أصْدرها العربيُّ وعلينا معرفة الحكمة في إصدارها وعلى النّحوي إصدارها مكانه لأنها لا تُجافي الحكمةَ التي كانت وراء الأحكـــام الصـــادرة نصا[١].والتي لا تخالف ما تَرومُه إراداتُ مستخدمي اللغة في سِياقاتهم المتبايـــنة.بـــل إنّ اهتمامَ النّحويين بالتقعيد لمَنْطوق أبناء اللغة يجعل سيبويه يقرّر صراحة "وليس شيءٌ مما يُضطرّون إليه إلا وهُم يحاوِلون به وجْها."[٢] وهو يعني بقوله هذا النّحويين الذيـــن لا يســـتطيعون إغفالَ خروج ابنِ اللغة عن أصول القواعد النّحويّة التي افترضها الـــنّحاةُ، فلا يَتبقّى لهم والحالُ هذه إلا أن يَجْهدوا في تَطويع قواعد أخرى فرعية، لِتَصِفَ تلك الخُروجات غير المقيّدة، وهذا الشأن يذْكُره ابن جنّي كذلك في خصائصه، يقول في نـــص صـــريح: "ولّما كان النّحويون بالعربِ لاحقين، وعلى سَمْتِهم آخذين، وبألفاظهم مُـــتَحَلّين، ولمعانيهم وقُصودِهم آمّين، جاز لصاحب هذا العلم الذي جمَع شُعاعه، وشَرَع أوضـــاعَه، ورسم أشكالَه، ووَسَم أغْفالَه ، وخَلَج أشْطانه، وبَعَج أحْضانَه، وزَمَّ شَواردَه، وأفـــاء فواردَه، أن يرى فيه نَحْوا مما رأوا، ويَحْذو على أمثلتهم التي حَذوا، وأن يَعتقِد في هـــذا الموضع نحوا مما اعتقدوا في أمثالِه، لا سيّما والقياس إليه مُصغٍ، وله قابلٌ، وعنه غير مُتـــثاقِل، فاعرِف إذاً ما نحن عليه للعرب مذهبا، ولمن شَرح لُغاتها مُضطربا، وأن سيبويه لاحقٌ بهم وغيرُ بعيدٍ فيه عنهم."[٣]

وقـــد يكون من المفيد في هذا السّياق تتبع وُجوه الجواز النّحوي، خاصّة ما تعلّق مـــنها بالظواهِـــر النّظمية، من مثل جواز مخالفة الرّتبة، وجواز الحذف، وذلك من خلال الأبواب النّحويّة المختلفة، بين نَمطي الجُملة الاسمية والفعلية. وربما يَتهيأ لنا في بعض المواطن ضرورةُ الإمساس بأحكام الوُجوب ، باعتبارها النّقيض، أو المقابل لوجوه الجواز، لتَتمايز الفروقُ، ونستدّل على غاية متشعّبة بالاسْتِهداء بوسيلة مُنْضَبِطة تُنبئ – فيما نحْدُس – عن وجهتَنا التي نتوخّاها من خلال هذا المبحث. والذي ينقسم فيما يأتي إلى :

---

[١] : أحمد العلوي: أسس منهج البحث في اللغويات العربيّة، ٥٠.

[٢] : الكتاب، ١/٣٢.

[٣] :ابن جنّي، الخصائص، ١/ ٣٠٨-٣٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ إعادة التّرتيب :

في الجُملة الاسمية

في الجُملة الفعلية

ـ الحذف :

في الجُملة الاسمية

في الجُملة الفعلية

ونكْـــتفي مـــن ظواهر النّظم بهاتين الظاهرتين الدالّتين ، واللتين يُقدّر أنهما الأكثرُ أهمـــيةً، والأوضحُ دلالةً مِن بين وجوه الجواز في النّظم التي يسعى البحثُ لمُقاربَتِها وتَعيين أثر المقام أو سِياق الحال من بعد في توجيه اطّرادهما، بل في المطالبة بتَجَلّيهما..

ويُختتم الفصل بمحاولة الوقوف على الفُروق الكامنة بين أحْكام الوجوب وأحْكام الجـــواز، بناءً على ما جاء في المباحث المُسْتَقْصاة. بالأخذ في الاعتبار أنّ كِلا النوعين من الأحكام هي أحكامٌ طارئةٌ على البِنْية الأصليّة للجُملة العربيّة.

أولاً: إعادة التّرتيب

سَبق أن دار الحديثُ حَول اتّخاذ الجُملة نسقا معيّناً، أو بنية أساسية، تتَفرّع عنها بنى مُتعدّدة لا تخالف الصحّة النّحويّة، ولكنها تتّفق في أنْماطها المُسْتَحدَثة مع معان نحْويّة ومقاميّة يتوخّاها الناطقُ باللغة..

والجُملة العربيّة في خَطّها الأُفقي، تملكُ من المرونة والسّعة ما يُمكّن عناصرَها من تغيير مواقعها بالخروج على الرّتبة الأصلية التي لها.

والرُّتبة مفهومٌ نحويّ يُقصد به الموقع الأصلي الذي يجب أن تتخذَه الوظيفةُ النّحويّة بالنسبة للوظائف الأخرى المرتبطة بها بعلائق تركيبية.[١]

وقـــد فرّق اللغويون بين صورتين من صور الرّتبة التي تأتي الجُملة عليها، أوليهما الرّتـــبة المحفوظة، ومعناها موقع الكلمة الثابت متقدّماً أو متأخّراً في التّركيب الكلامي[٢]،

---

[١] :لطيفة النجّار : منزلة المعنى في نظرية النّحو العربي ١٦٧.

[٢] :فاضل الساقي: أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة ١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهي التي لا تخالفها الجُملة إلا ويختلّ التركيبُ باختلالها، ولهذا فقد وضع النّحاةُ لهذا النوع من الرّتبة ضوابط ومحدِّدات تجيء على نسَقها، وتصدرُ عنها صُدورا لازماً، وعليها ينبني القول في مجموعة من الأبواب النّحويّة، وهذا النوع من الرّتبة أيضا هو ما دفع النّحاةَ إلى صَوْغ عبارتهم الشّهيرة (لا يعمل ما بعدها فيما قبلها)[١]، ومن أمثلة الرتب المحفوظة في نحو العربيّة ما يعدّده ابن السّراج في أصوله في باب له حول التّقديم والتّأخير: يقول: "فالثلاثة عشر التي لا يجوز تقديمها الصِّلة على الموصول، والمُضْمر على الضّامر في اللّفظ والمعنى إلا ما جاء على شَريطة التّفسير، والصّفة وما اتّصل بها على الموصوف، وجميع توابع الاسم حُكمها كَحُكم الصّفة، والمضاف إليه وما اتّصل به على المضاف وما عمِل فيه حرفٌ أو اتّصل به حرفٌ زائدٌ لا يقدّم على الحرف، وما شُبه من هذه الحروف بالفعل فنَصَب ورَفَع فلا يُقدّم مرفوعُه على منصوبِه، والفاعلُ لا يُقدّم على الفعل، والأفعال التي لا تتصرّف لا يُقدّم عليها ما بعدها والصّفات المُشبّهة بأسماء الفاعلين، والصّفات التي لا تشبه أسماء الفاعلين لا يقدّم عليها ما عَملت فيه، والحروف التي لها صَدْرُ الكلام، لا يقدّم ما بعدُها على ما قبلها، وما عمِل فيه معنى الفعل فلا يُقدّم المنصوبُ عليه، ولا يُقدّم التمييزُ (وما عمل فيه معنى الفعل)، وما بعد إلا، وحروف الاستثناء لا تعملُ فيما قبلها، ولا يُقدّم مرفوعُه على منصوبه، ولا يُفرق بين الفعل والعامل والمعمول فيه الفعل"[٢].

و هذا النّوع من الرّتبة هو الذي صاغ أيضا العِبارة النّحويّة الدارِجَة في كثير من الأدوات أنّ (لها الصّدارة)، فهذه الأدوات أو المكوّنات تنْزع إلى احتلال صدرِ الجُملة والموقع الأول منها على وجه التحديد، على الرّغم من أي إجراء يمكن اللجوء إليه لِعَكْس التّرتيب.[٣]

وأما النّوع الآخر من الرّتبة، فهو الرّتبة غير المحفوظة، وهي التي تمنح الجُملة مرونتها وسعتها، وتكسبها من سعة الدلالة على المعاني المُتوخّاة ما قد يضيق به البناءُ الأفقيّ في حالِ كان مُوحّدا على أصلٍ ثابت.

---

[١] :تمّام حسّان : اللغة العربيّة معناها ومبناها ٢٠٧.وانظر أيضا في تراث النّحاة، على سبيل المثال:

[٢] :ابن السراج:الأصول:٢/١٨٥-١٨٦.

[٣] : أحمد المتوكل: دراسات في نحو اللغة العربيّة الوظيفي ٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أمثلة الرّتبة غير المحفوظة في التركيب النّحوي العربي رُتبة المبتدأ والخبر، ورُتبة الفاعل والمفعول به، ورُتبة التّمييز بعد نِعْم، ورتبة الحال والفعل المتصّرف، ورُتبة المفعول به والفعل[١].

وعلى ما لهذه الرّتبة من الحريّة والسعة، إلا أن الحال قد تدعو أحيانا إلى حِفْظها، ولزومِ العناصر لمواقعها الأصلية، ليُؤمَن لبسٌ قد يتوقف عليها.

وفيما يأتي نشْرعُ في محاولةِ رصدِ أشكالِ الرّتبة غير المحفوظة كما عَرَض لها النّحاة في مُصنّفاتهم، ممثلةً أوجهاً للجواز في التّركيب في بنية النّحو العربي.

١- في الجُملة الاسمية:

تـأخذ الجُملـة الاسمية في أصل ترتيبها الشكل المتعارف عليه بتقدّم المبتدأ، وهو المسند إليه، والتتمة بالخبر وهو المسند، وهذا ما يمثل له ابن مالك في ألفيته بقوله:

مبتدأٌ زيدٌ، وعاذرٌ خـبرْ إن قلت: زيدٌ عاذر من اعتذر[٢]

وهذا الشكل كما هو معروف ليس شكلا نهائيا، وإن كان مطّردا، فالجُملة – كما تقدّم- يَعْـتَريها تغيير في رتبة مكوّناتها لأسباب مختلفة، إلا إن المبتدأ يظل هو محط الفائدة، والخبر مـتمم الفائدة تقدّما أو تأخّرا، فلهذا يُبنى على المبتدآت أحكام تظهر من خلال أخبارها. يقـول ابن يعيش في هذا: "اعلم أن المبتدأ والخبر جملة مفيدة تحصل الفائدة بمجموعهما، فالمبتدأ معتمد الفائدة والخبر محل الفائدة"[٣]

واخـتلف الـنّحاة على رافع كل من المبتدأ والخبر، فهناك من قال إن المبتدأ يرفع بالابـتداء، والخـبر يـرفعه المبتدأ أو الابتداء والمبتدأ، وقيل إن كليهما يرفعان بالابتداء، والبعض على أنهما يترافعان[٤]. وأما قول سيبويه في هذا وفي ترتبهما:

---

[١] :تمام حسان : اللغة العربيّة معناها ومبناها ٢٠٧.

[٢] : شرح ابن عقيل، ٨٨/١.

[٣] : ابن يعيش، شرح المفصّل، ٩٤/١.

[٤] : الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ٤٤/١. وانظر فيه مسألة تقديم الخبر على المبتدأ ٦٥/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" واعـــلم أن المبـــتدأ لا بدّ له من أن يكون المبني عليه شيئا هو هو، أو يكون في مكان أو زمان. وهذه الثلاثةُ يُذكرُ كلٌّ واحدٍ منها بعد ما يُبتدأ.

فأمّا الذي يُبنى عليه شيءٌ هو هو فإن المبني عليه يرتفعُ به كما ارتفع هو بالابتداء، وذلك قولك: عبدُ الله منطلقٌ؛ ارتفع عبدُ الله لأنه ذُكِر لِيُبنى عليه المنطلق، وارتفع المنطلقُ لأن المبني على المبتدأ بمنزلته.

وزعم الخليلُ -رحمه الله- أنه يَسْتَقْبِح أن يقول: قائمٌ زيدٌ، وذاك إذا لم تجعل قائما مقدّماً مبنياً على المبتدأ، كما تؤخّر وتقدّم فتقول: ضرب زيداً عمرو، وعمرو على ضرب مرتفعٌ، وكان الحدُّ أن يكون مقدّما ويكون زيدٌ مؤخراً. وكذلك هذا، الحدُّ فيه أن يكون الابتداء فيه مقدّما.

وهـــذا عربيٌّ جيّدٌ. وذلك قولك: تميميٌّ أنا، ومَشْنوءٌ من يَشْنَؤك، ورجلٌ عبدُ الله، وخزٌّ صفتُك."[١]

وفي الشأن نفسه يقول صاحب المقتضب:

" وتقول: منطلقٌ زيدٌ، فيجوز إذا أردتَ بمنطلقٍ التأخيرَ، لأن زيداً هو المبتدأ. وتقول على هذا : غلامُ لك عبدُ الله، وظريفان أخواك، وحِسانٌ قومُك."[٢]

فـــتأخيرُ المبـــتدأ، وتقديمُ الخبر مما يجيزُه نظامُ الجُملة في العربيّة، ويحفظ — مع تغير الرتبة- لكل كلمةٍ وظيفتَها التي يَقصِدُها المتكلّم، وتتمكّن عناصرُ الجُملة من تبادل مواقعها طالما أُمِن اللبسُ، وكان في السّياق ما يدلُّ على أصل التّركيب، يقول ابن مالك في ألفيته:

والأصلُ في الأخبار أن تؤخّرا وجَوّزوا التقديمَ إذ لا ضَرَرا [٣]

ويـــأتي في باب الجُملة الاسميّة بعض المسائل التي يتناقلها النّحاة في مصنّفاتهم، مثل تقدّم اسم كان وإنّ عليها أو على أخبارها، ومدى جواز ذلك، وما يتعلّق بهذه المسائل من قضايا تتعلق بعمل ما قبل فيما بعد. وهذا شرحٌ للمبرّد في بعض أمثلة لهذه المسائل، يقول: " ألا ترى أنك تقول: إن زيدا منطلقٌ. ولو قدمتَ الخبرَ لم تقل: إن منطلقٌ زيدا، لأنك لا

---

[١] : الكتاب، ٢/ ١٢٦-١٢٧.

[٢] : المبرد، المقتضب، ١٢٧/٤.

[٣] : ابن عقيل، شرح ابن عقيل، ٢٢٧/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تجعـــل الحـــروفَ غيرِ المتصرفة كالأفعال المتصرّفة، ولو فعلتَ ذلك للزِمَك أن تصرّفها في أنفسها، وهذا محالٌ.

فأما تقديم الخبر فقولك: ما منطلقٌ زيدٌ، وما مسيءٌ من أعتب.

فإنمـــا قدمـــت عـــلى حد قولك: ما زيدٌ منطلقٌ، ولو أردت التقديم على قولك: ما زيدٌ منطلقاً، لم يجُز؛ كما لا يجوز: إنّ منطلقٌ زيداً.

وهـــذا قـــولٌ مغنٍ في جميع العربيّة : كلُّ ما كان متصرّفا عَمِل في المقدّم والمؤخّر. وإنْ لم يكن متصرّفاً لم يُفارق موضعه، لأنه مُدخلٌ على غيره.

وأما نقضُ الخبر فقولك: ما زيدٌ إلا منطلقٌ. لأنك نَفيتَ عنه كلَ شيء إلا الانطلاق. فلم تَصلُح ما أن تكون عاملةً في نقض النفي؛ كما لم تَعمل في تقديم الخبر."[1]

وتتداخلُ الأوجهُ الجائزةُ بتلك الأضرب الواجبة في تقديم ما حقّه التأخير، فيُفَصِّلُها النّحاة جنباً إلى جنب، وإن كانت الأحكام الواجبة مما اطّرد، وثبت موضعُه، وليس هكذا تماماً القولُ في أوجه الجواز، التي تَرجعُ في كثير من الأحيان إلى سِياقاتها المتجدّدة ، يُفسّر ما نذهبُ إليه قولُ الرضيّ في شرحِه للكافِيَة:

" قال ابنُ الحاجب:

وإذا كـــان المبـــتدأُ مشـــتملاً على ما له صَدرَ الكلام، مثل: من أبوك؟ أو كانا معرِفـــتين، أو متساويين مثل: أفضلُ منك أفضلُ مني، أو كان الخبرُ فعلاً له مثل: زيدٌ قامَ، وَجَبَ تقديمُه.

قال الرضيُّ...قوله:

أو كانـــا معرفـــتين، أو متساويين، ليس على الإطلاق، بل يجوز تأخّر المبتدأ عن الخبر معرفتين أو متساويين، مع قيامِ القرينةِ المعنويّة الدّالة على تَعيين المبتدأ، كما في قوله:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتُنا بنوهن أبناءُ الرجالِ الأباعد".[2]

---

[1] : المبرد، المقتضب، ٤/١٩٠.

[2] : الرضي، شرح الكافية، ١/٢٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" قال ابنُ الحاجب: وإذا تضمّن الخبرُ المفردُ ما له صَدرُ الكلام، مثل أين زيدٌ؟ أو كان مصحِّحا، مثل: في الدار رجلٌ، أو لمتعلّقه ضميرٌ في المبتدأ، مثل على التمرة مثلُها زبداً، أو عن "أنّ" مثل: عندي أنك قائمٌ، وجب تقديمه.

قال الرضيُّ: هذا بيان لموجبات تقديم الخبر، وإنما قال: الخبر المفرد لأنه إن كان جملة متضمّنة لما يقتضي صدرَ الكلام لم يجبْ تقديمُه، نحو : زيدٌ من أبوه؟ إذ الاستفهام وسائر ما يقتضي صدرَ الكلام يكفيها أن تَقعَ صدرَ جملةٍ من الجمل.

وقوله: أو كان مصحِّحا أي كان الخبرُ، أي تقدّمه مصحّحا لمجيء المبتدأ نكرةً، على ما ذكر قبل في جواز تنكير المبتدأ أن تقدّم حكمُ النّكِرةِ عليها خصّصها حتى جاز وقوعُها مبتدأ.

... وإذا كان تقديم الخبر يُفْهَم منه معنى لا يُفهَم بتأخيره، وجب التقديم، نحو قولك: تميميٌ أنا، إذا كان المرادَ التفاخرُ بتميم أو غير ذلك مما يُقدم له الخبرُ. "[1]

وهذا قولٌ بالغُ الأهميةِ في التنبّه للمعنى حَكماً في بعض الصّور المخالفة للأصول، والانتقال بالقاعدة من الجواز إلى الوجوب، لتحقيق الغاية التي يتقصّدها المتكلّم، أو التي تُراعي في المخاطَب أو المقام حالةً يُستَحْسَنُ عدمُ إغفالها.

٢- في الجُملة الفعلية:

كما الجُملة الاسمية، تتخذ الجُملة الفعلية نسقا أصلياً يجعل ركنيها الأساسيين يتّخذان موقعيهما بتقدّم الفعل على فاعله تقدّما مطّرداً، وفي هذا التّرتيب يتقدّم المسند على المسند إليه، ثم تأتي بعد ذلك مكملات الجُملة من فضلات أو مفاعيل، لتعقب الفاعل في أصل التّرتيب، يقول ابن مالك في ألفيته:

وبعد فعلٍ فاعلٌ فإن ظهرْ فهو، وإلا فضميرٌ استترْ[2]

---

[1] : الرضي، شرح الكافية، ١/٢٣٠-٢٣٤.

[2] : ابن عقيل، شرح ابن عقيل، ٢/٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويذهب البعض إلى مراجعة القول فيما يظهر مستقرّاً ، وذلك زيادة في التمحيص والتدقـــيق، ومنه ما نجد في كلام ابن الحاجب الذي يشرحه الرضي: " قال ابن الحاجب: والأصل أن يلي فعله – أي الفاعل- فلذلك جاز: ضرب غلامَه زيدٌ، وامتنع ضرب غلامُه زيداً.

قال الرضي: قوله : يلي فعله أي يكون بعده بلا فصل..

قوـــله فلذلـــك جاز، أي جواز هذه المسألة معلل بكون الأصل في الفاعل أن يلي الفعـــل، وذلك أن يقال: إنما جاز "ضرب غلامَه زيدٌ" مع أن ما يرجع إليه الضمير مؤخر عنه، لأن زيداً فاعل، وأصله أن يلي الفعل، فهو متقدّم على الضمير تقديراً، وكذلك عدم جواز: ضرب غلامُه زيدا، معلل بما ذكر، وذلك بأن يقال: إنما لم يجز" ضرب غلامُه زيداً" لأن غلامـــه فاعل، وأصل الفاعل أن يلي الفعل، فهو مقدم على زيد لفظاً وأصلاً، فيكون الضمير قبل الذكر، ولا يجوز ذكر ضمير مفسره بعده، إلا في ضمير الشأن لغرض تفخيم الشأن بذكره مبهماً ثم مفسّراً ليكون أوقع في النفس كما يجيء"[١].

وعـــلى الرغم من أن رتبة الفاعل مع فعله هي رتبة محفوظة، إلا إن المفعول به مع الفعـــل والفـــاعل من الوظائف التي لم تُحفظ له رتبة ثابتة، كما يظهر من القول السابق للرضي، وما يقوله ابن مالك أيضا:

وشاع نحو خاف ربَه عمر وشذ نحو زان نوره الشجر[٢]

" أي شـــاع في لسان العرب تقديم المفعول المشتمل على ضمير يرجع إلى الفاعل المـــتأخّر، وذلك نحو خاف ربه عمرُ، فربه مفعول وقد اشتمل على ضمير يرجع إلى عمر وهو الفاعل، وإنما جاز ذلك وإن كان فيه عود الضمير على متأخّر لفظا لأن الفاعل منوي الـــتقديم على المفعول؛ لأن الأصل في الفاعل أن يتصل بالفعل فهو متقدّم رتبة وإن تأخّر لفظـــا"[٣]. وهـــذا باب ذكره سيبويه – ووقف البحث على ذكره في موضع آخر[٤] – إذ يقـــول: " فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك

---

[١] : الرضي، شرح الكافية، ١٦٣/١.

[٢] : ابن عقيل، شرح ابن عقيل، ١٠٥/٢.

[٣] : ابن عقيل، شرح ابن عقيل، ١٠٥/٢.

[٤] : انظر البحث، ص؟؟

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قولـــك : ضرب زيداً عبدُ الله، لأنك إنما أردت به مؤخرا ما أردت به مقدما، و لم ترد أن تشـــغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخرا في اللفظ. فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدّماً، وهو عربي جيّد كثير."[١]

كما يقول ابن يعيش في هذا الباب: " ووجب تأخير المفعول من حيث كونه فضلة لا يـــتوقف انعقاد الكلام على وجوده، فإذن رتبة الفعل يجب أن يكون أولا ورتبة الفاعل أن يكـــون بعـــده، ورتبة المفعول أن يكون آخراً؛ وقد تقدّم المفعول لضرب من التوسع والاهتمام به، والنية به التأخير، ولذلك جاز أن يقال: ضرب غلامَه زيدٌ، فالغلام مفعول وهـــو مضاف إلى ضمير الفاعل وهو بعده متأخّر عنه، فهو في الظاهر إضمار قبل الذكر، لكنه لما كان مفعولا كانت النية به التأخير، لأنه لما وقع في غير موضعه كانت النية التأخير به إلى موضعه ويكون الضمير قد تقدّم في اللفظ دون المعنى وذلك جائز."[٢]

ومثل هذا في مسألة الرتبة بين المفعول وفاعله ما يجيء في شرح الكافية: " قال ابن الحاجـــب: وإذا اتصل به ضمير مفعول، أو وقع بعد إلا أو معناها، أو اتصل مفعوله وهو غير متصل، وجب تأخيره.

قال الرضي: بيان لما يعرض، فيوجب مخالفة الأصل، أي تأخير الفاعل عن المفعول. قوله: اتصل به أي بالفاعل ضمير مفعول راجع إلى مفعول، وجب تأخير الفاعل عند الأكثرين، ومثاله: ضرب زيداً غلامُه، إذ لو قدّمته لكان إضماراً قبل الذكر لفظاً وأصلاً.

وينبغي أنه يجوز عند الأخفش وابن جنّي..

وكذا الحكم لو اتصل ضمير المفعول بصلة الفاعل أو صفته، نحو ضرب زيدا الذي ضرب غلامه، وأكرم هنداً رجل ضربها، هكذا قيل، ولو قيل بجواز أكرم هندا رجل ضربها لجاز، لأن الفصـــل بـــين الوصف والموصوف بالأجنبي غير ممتنع، بخلاف الصلة والموصول، إذ الاتصال الذي بين الأولين أقل مما بين الأخيرين.

قولـــه: أو وقع بعد وقع بعد إلا، أي وقع الفاعل نحو: ما ضرب عمرا إلا زيدٌ، أو معـــناها نحـــو: إنمـــا ضرب عمرا زيدٌ. وإنما وجب تأخير الفاعل ههنا لما ذكرنا بعينه في

---

[١] : الكتاب، ٣٤/١. وانظر الخلاف حول مسألة الترتيب في الجُملة الفعلية في الإنصاف في مسائل الخلاف للأنباري، ٧٩/١.

[٢] : ابن يعيش، شرح المفصل، ٧٦/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجـــوب تقديمه في ما ضرب زيدٌ إلا عمرا، فإن مضروبية ما قبل إلا محصورة فيما بعدها، والضـــاربية محتملة، فلو قدّمت الفاعل بلا إلا انعكس المعنى، ولو قدّمته معها لجاء المحذور المذكور."[١]

ويعقّـــب ابـــن الحاجب برتبة المفاعيل الخمسة الأخرى مع العامل فيها، وجواز تقدّمهـــا، ويلي ذلك تنبيه مهمٌ من الشارح إلى أنه: "" قال ابن الحاجب: وقد يتقدّم على الفعل.

قال الرضي: هذا الحكم ليس مختصاً بالمفعول به، بل المفعولات الخمسة فيه سواء، إلا المفعـــول معـــه، وذلك لمراعاة أصل الواو، إذ هي في الأصل للعطف، فموضعها أثناء الكلام."[٢]

وتـــتعدد مســـائل الجـــواز في الجُملة الفعلية في قضية الرتبة، أكثر منها في الجُملة الاسمـــية، وذلك لكثرة المتعلقات التي تلحق بالفعل ويعمل فيها، لكونه من العوامل القوية والمتصـــرفة كمـــا يسميها النّحاة. ومن هذه المتعلقات تبرز وظيفة الحال، وفيها عدد من القضـــايا المتعلّقة بتقدّم الحال على صاحبها ، أو العامل فيها، ويشرح المبرّد شيئا عنها في بعض أحوالها في قوله:

" واعـــلم أن الحـــال إذا كان العامل فيها فعلا صحيحاً جاز فيها كل ما يجوز في المفعول به من التقديم والتأخير، إلا أنها لا تكون إلا نكرة.

وإنما جاز ذلك فيها، لأنها مفعولة، فكانت كغيرها مما ينتصب بالفعل، تقول: جاء راكـــباً زيـــدٌ، كما تقول عمرا ضرب زيدٌ، وقائما زيدا رأيت، كما تقول: الدرهمَ زيداً أعطيتُ، وضربت قائما زيداً."[٣]

ويـــتابع التعليق على المسألة ذاتها في موضع آخر بشرحه: " فإذا كان العامل في الحال فعلا، صلح تقديمها وتأخيرها؛ لتصرف العامل فيها، فقلت جاء زيد راكباً، وراكباً جـــاء زيـــد، وجـــاء راكـــبا زيـــد، قال الله عز وجل: {خشّعاً أبصارهم يخرجون من

---

[١] : الرضي، شرح الكافية، ١٧١،١/١٧٢.

[٢] : الرضي، شرح الكافية، ١/ ٣٠٢.

[٣] : المبرد، المقتضب، ٤/ ١٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأجداث}. وإن كان العامل غير فعل لم تكن الحال إلا بعده، وذلك قولك: زيد في الدار قائما."[١]

ولصاحب الكافية في هذا الموضع إشارات تذهب مذهب التجويز ذلك نفسه، فيشير إلى رأي نحاة البصرة: " وأما البصريّة فأجازوا تقديم الحال على صاحبه المرفوع والمنصوب، سواء كان مظهراً أو مضمراً، لأن النية في الحال التأخير عن صاحبه، فلا يكون إضمارا قبل الذكر، كما ذكرنا في تقديم خبر المبتدأ، نحو في داره زيد، وفي الفاعل والمفعول، نحو { فأوجس في نفسه خيفة موسى}".[٢]

ومن المسائل المهمّة في باب الرتبة في الجُملة الفعلية، مسألة التمييز من حيث تقدّمه على المميّز أو الفعل العامل فيه، وهي مسألة مطروحة منذ سيبويه، وتناقلها النّحويون مختلفين عليها من بعد، ويذكر المبرّد ذلك مطلقا لفظة التبيين على وظيفة التمييز، يقول: "واعلم أن التبيين إذا كان العامل فيه فعلاً جاز تقديمه، لتصرف الفعل، فقلت: تفقّأت شحماً، وتصببت عرقا، فإن شئت قدّمت، فقلت: شحما تفقّأت وعرقا تصببت. وهذا ما لا يجيزه سيبويه؛ لأنه يراه كقولك: عشرون درهماً، وهذا أفرههم عبداً، وليس هذا بمنزلة ذلك؛ لأن (عشرين درهماً) إنما عمل في الدرهم ما لم يؤخذ من الفعل. ألا ترى أنه يقول: هذا زيدٌ قائما، ولا يجيز قائما هذا زيد؛ لأن العامل غير فعل. وتقول: راكبا جاء زيد، لأن العامل فعل، فلذلك أجزنا تقديم التمييز إذا كان العامل فعلا. وقال الشاعر، فقدم التمييز لما كان العامل فعلاً:

أتهجر ليلى للفراق حبيبها وما كان نفسا بالفراق تطيب"[٣]

ويظهر هذا الاختلاف الكائن في باب التمييز في الكافية أيضا، " قال ابن الحاجب: ولا يتقدّم التمييز، والأصح أنه لا يتقدّم على الفعل، خلافاً للمازني والمبرّد.

قال الرضي: أي لا يقدّم التمييز على عامله، إذا كان عن تمام الاسم اتفاقا، وكذا لا يفصل بين عامله وبينه، وقوله:

على أنني بعد ما قد مضى ثلاثون للهجر حولا كميلا

٥٤٥٥٤٩

---

[١] : المبرد، المقتضب، ٤/٣٠٠.

[٢] : الرضي، شرح الكافية،٢/٦٧.

[٣] : المبرد، المقتضب، ٣/٣٦-٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ضرورة.

وأمـــا إن كان العامل الفعل الصريح، نحو طاب زيد أباً، أو اسم الفاعل أو اسم المفعول، فجوّزه المازني والكسائي والمبرد، نظراً إلى قوة العامل، ومنعه الباقون؛ لأنه في الأصل فاعل الفعـــل المذكـــور، كمـــا في طاب زيد أباً، أو فاعل الفعل المذكور إذا جعلته لازماً، نحو وفجّـــرنا الأرض عيونا، أي تفجرت عيونها، أو فاعل ذلك الفعل إذا جعلته متعدّياً، نحو امتلأ الإناء ماء، أي ملأه الماء؛ والفاعل لا يتقدّم على الفعل، فكذا ما هو بمعنى الفعل."[١]

ثانيا: الحذف

يعـــرّف الكفوي الحذف في كلّياته بقوله: الحذف إسقاط الشيء لفظا ومعنى، ثم يذكـــر بعده تعريفاً للإضمار من باب المقابلة بين ما يُظن مترادفا، فيعرفه بإسقاط الشيء لفظا لا معنى . ويفرّق بينهما كذلك بأن الحذف ما ترك ذكره في اللفظ والنية كقولك: (أعطيت زيدا)، بينما الإضمار ما ترك ذكره من اللفظ، وهو مراد بالنيّة والتقدير، كقوله تعالى: (وأسأل القرية).[٢]

وعـــلى مـــا يحاوله الكفوي من التفريق بين المصطلحين، إلا أن تتبعهما في كتب الـــنّحاة ينبـــئ عن أن النّحاة لم يكونوا يثبتون فرقا بينهما يلتزمونه في أحكامهم، فالقول عندهم بهذين المصطلحين يتداخل حتى لا يكاد يستبين اختلافاً يتقصّدونه، ويلتزم البحث هنا مصطلح الحذف للدلالة على استغناء الجُملة عن بعض عناصرها، مع بقاء معناه وأثره، ولا يقف إلى مصطلح الإضمار إلا بما يأتي في اقتباساته من أقوال النّحويين في مصنّفاتهم.

وقـــبل أن نتتـــبع الحذف في أعمال النّحاة، نقف إلى مقولة معجِبة تتناول الحذف يصـــدّر بها الجرجاني في دلائله باباً يخصصه لهذا الموضوع، يقول:" هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر،

---

[١] : الرضي، شرح الكافية، ٢/١٠٦-١٠٧.

[٢] : الكفوي، الكليّات،٢٢٦-٢٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبِن ! "[١]

فالجـــرجاني يضمر علماً غزيرا بألفاظه محكمة السبك هذه، ويلمح إلى ما تنبّه إليه الـــنّحاة من أن الخروج على الأصل في بعض المواطن يكون أبلغ من الركون إلى الأصل، فإن من المعلوم أن الحذف خلاف الأصل، وهو باب استفاض النّحويّون في ضبط شوارده، وإحكام قيوده، فذكروا للحذف أسباباً، لا يسوّغ اللجوء إليه إلا إن توافرت، مثل كثرة الاســـتعمال وطـــول الكلام وعلم المخاطَب وأمن اللبس والضرورة، ووضعوا له شروطاً وقـــرائن مـــن المقـــال والمقام تبين الأصل الذي خرج الحذف عليه، وتحّفظوا على بعض العناصر فمنعوا حذفها، وكان لعناصر أخرى مقيّدات تحكم حذفها، وهكذا...

ويفرّق النّحاة كذلك بين حذف تقتضيه مطالب الصنعة النّحويّة، وحذف يسوّغه الاستعمال[٢]، إلا أن أهم ما يتوقّف النّحويون للإشارة إليه هو تقدير المحذوف من الجُملة، ويُتوصـــل إلى صـــحة الـــتقدير بما يعين من شاهد الحال أو المقال، حتى إذا كان العنصر المحـــذوف معلوما لدى المتخاطبين، فإنه يعدّ كالمذكور، ويكون الاستغناء عنه مما كثُر في العربيّة واستجيد في عرف النّحاة.

إن تحقيق الإفادة مع أمن اللبس هي الغاية القصوى التي يرتجيها النّحوي في تجويزه لبعض صور النطق التي تخرج عن الأصول المرعية في قواعدهم، ويلي هذه الغاية ما يطمح إليه وهم أبناء اللغة الصّادرين عن ثقة بشجاعة لغتهم، من معان يضمرونها تتحقق بأوجه متبايـــنة مـــن القول لا تكتفي بالبِنْية الأصليّة للجملة، ومتى حفظ النّحاة لأصولهم تحقيق غايتها من الضبط وأمن اللبس، فإنهم يتسمّحون، بل ويعللون للناطقين باللغة تلك الصور المفارقـــة لأصل الوضع. حتى يقرر المبرّد في مصنفه المقتضب، في باب ما يحذف استخفافاً لأن اللـــبس فيه مأمون[٣]، أن العنصر المحذوف إن كان معلوماً لدى المخاطَب أصبح بمثابة المذكور. وهو باب من القول مطّرد في أعمال النّحاة، فمثيله لدى ابن جنّي — مثلاً- في خصائصه باب يصدّره بأن المحذوف إذا دلت الدلالة عليه كان في حكم الملفوظ به، إلا أن

---

[١] : عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ١٤٦..

[٢] : للاستفاضة في مبحث الحذف وأنواعه وضوابطه ينظر: ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ٥٦٧-٦١٥.

[٣] : المبرّد، المقتضب، ٣٨٣/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعـــترض هـــناك من صناعة اللفظ ما يمنع به.[١] ويقرر في مكان آخر " قد حذفت العرب الجُملـــة والمفرد والحرف والحركة، وليس شئ من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته"[٢]

ومن الأمثلة كذلك عن جواز الحذف لإقامة الدليل، وعدم جواز ذلك إلا بدلالة، ما يورده الأنباري في بعض مسائله، يقول: " وقال الفرزدق:

إني ضمِنتُ لمن أتاني ما جنى وأبى، فكنت وكان غير غدور

فاستغنى بخبر الثاني عن الأول، والشواهد على هذا النّحو كثيرة، فدل على جواز الإضمار هاهنا قبل الذكر، لأن ما بعده يفسّره، وإذا جاز الإضمار مع عدم تقدّم ذكر المظهر لدلالة الحال عليه، كما قال تعالى: "حتى توارت بالحجاب" يعني الشمس، وإن لم يجر لها ذكر، وكما قال تعالى: "كل من عليها فان" يعني الأرض، وكما قال الشاعر:

على مثلها أمضي إذا قال صاحبي: ألا ليتني أفديك منها وأفتدي

يعني الفلاة، وإن لم يجر لها ذكر لدلالة الحال "[٣]

١- في الجُملة الاسميّة:

يكـــون الحذف في الجُملة الاسمية بحذف أحد ركنيها الأساسيين، المبتدأ أو الخبر، وهو من الأمور التي كثُرت وتواترت في نظم الجُملة العربيّة، بل إن بعض الحذف فيها يعدّ من الحذف الواجِب.

ومـــن أمـــثلة حذف المبتدأ، ما يورده سيبويه في شاهده الآتي: "سمعناه ممن يوثق بعربيته:

إذا متّ كان الناسُ صنفان: شامتٌ وآخرُ مثنٍ بالذي كنتُ أصنعُ

(أضمر فيها)."[٤]

---

[١] : ابن جنّي، الخصائص، ٢٨٤/١.

[٢] : ابن جنّي، الخصائص، ٣٦٠/٢.

[٣] : الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ٩٦/١-٩٧.

[٤] : الكتاب، ٧١/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكأنــه قــال: صنفٌ شامتٌ، ولكنه حذف لدلالة التقسيم على المحذوف. وفي الشاهد حذف آخر ولكنه يندرج في باب حذف اسم كان، حيث جاء اللفظان بعد كان مــرفوعين، فــيقدّر محذوف، يُؤوّل بالقول: كان الأمر أو القصة الناس صنفان، أو يقدّر ضمير الشأن المحذوف اسما لكان.[١]

وقــد يحذف أحد ركني الجُملة الاسمية، ثم يختلف التقدير، وعلى اختلافه يتحدد كــون المحذوف خبراً أو مبتدأ، ومن أمثلة ذلك ما يجوّزه سيبويه قائلاً: "ويجوز: هذا أيضا عــلى قولــك: شــاهداك، أي ما ثبت لك شاهداك. قال الله تعالى جده: طاعة وقول معروف، فهو مثله. فإما أن يكون أضمر الاسم وجعل هذا خبره، كأنه قال: أمري طاعة وقول معروف، أو يكون أضمر الخبر فقال: طاعة وقول معروف أمثل."[٢]

ويذكر المبرد أمر حذف المبتدأ أو إضماره، ويورد الأمثلة على ذلك بعد أن يبتدئ قائلاً: إن المسند والمسند إليه هما ما لا يستغني كل واحد منهما عن الآخر، ثم يستثني على تلــك القاعدة حين يجوّز الحذف لوجود المحذوف في سِياق الكلام وجوّه، يقول: " باب المسند والمسند إليه، وهما ما لا يستغني كل واحد عن صاحبه:

ولــو قلت على كلام متقدّم عبدُالله، أو منطلق، أو صاحبُك، أو ما أشبه هذا — لجــاز أن تضــمر المبتدأ، إذ تقدّم من ذكره ما يفهمه السامع. فمن ذلك أن ترى جماعة يتوقّعون الهلال، فقال قائل منهم: الهلال والله، أي هذا الهلال. "[٣]

وهــذا المثال على حذف المبتدأ أو الخبر لدلالة سِياق الحال عليه مما يكثر دورانه عــلى ألسنة العرب، ومما تنبه له النّحاة وضبطوا قواعده.(وله أمثلة في الفصل الثالث من هذا البحث).[٤]

ويحكــي ابــن يعــيش عــلى كون الجُملة بمبتدئها وخبرها مما يتحصل الفائدة بمجموعهمــا معا، ولا يُستغنى عن أي من الطرفين إلا إن قامت قرينة تدل على المحذوف، " قال الشارح: اعلم أن المبتدأ والخبر جملة مفيدة تحصل الفائدة بمجموعهما، فالمبتدأ معتمد

---

[١] : في تقدير المحذوف في هذا الشاهد انظر: اللمع في العربيّة:٣٨، والجمل في النّحو: ١٤٥، وأسرار العربيّة: ١٣٣.

[٢] : الكتاب، ١٤١/١.

[٣] : المبرد، المقتضب، ١٢٩/٤.

[٤] : انظر هذا البحث، ص؟؟؟

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفـــائدة والخبر محل الفائدة. فلابد منهما، إلا أنه قد توجد قرينة لفظية أو حالية تغني عن الـــنطق بأحدهما فيحذف لدلالتها عليه، لأن الألفاظ إنما جيء بها للدلالة على المعنى، فإذا فهم المعنى بدون اللفظ جاز أن لا تأتي به، ويكون مراداً حكماً وتقديراً."[١]

ويـــلحق بالحذف في الجُملة الاسمية حذف أحد معمولي إن، ويسوّغ علم المخاطب هذا الحذف، ومن الأمثلة المتعارفة فيه:

" ويقول القائل: أما بقي لكم أحد فإن الناس ألب عليكم، فتقول: إنّ زيدا، وإنّ عمراً، أي لنا.

قال الأعشى: إنّ محلاً وإنّ مرتحلاً وإنّ في السفر إذ مضى مهلا

والمعرفة والنكرة هاهنا واحد. وإنما تحذف إذا علم المخاطب ما تعني بأن تقدّم له خبراً، أو يجري القول على لسانه كما وصفت لك."[٢]

٢- في الجُملة الفعلية:

يكـــثر القـــول بالحذف في الجُملة الفعلية لتعدد مكوّنات هذا النمط من الجمل، ويذهب بعض النّحاة للتفريق بين حذف العمد وحذف الفضلات، إلا إن صاحب معاني النّحو يوحّد بينهما قائلاً: " فإن العمدة تحذف جوازاً ووجوباً كالفضلة "[٣].

ومـــن أبـــرز ما يحملنا على القول بتمام الشبه بين حذف العمدة والفضلة، إيراد ســـيبويه لهمـــا في المثال الواحد، وذلك في باب الاشتغال والذي يسميه: " باب الفاعلين والمفعولـــين اللذين كل واحد منهما يفعل بفاعله مثل الذي يفعل به وما كان نحو ذلك" يقـــول حـــول حـــذف الفاعل أو المفعول: "وهو قولك: ضربت وضربني زيدٌ، وضربني وضربتُ زيداً، تحمل الاسم على الفعل الذي يليه. فالعامل في اللفظ أحد الفعلين، وأما في المعنى فقد يعلم أن الأول قد وقع إلا أنه لا يعمل في اسم واحد نصب ورفع."[٤]

---

[١] : ابن يعيش، شرح المفصّل، ٩٤/١.

[٢] : المبرد، المقتضب، ١٣٠/٤.

[٣] : فاضل السامرّائي، معاني النّحو، ١٤/١.

[٤] : الكتاب، ٧٣/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففـــي المثال: ضربتُ وضربني زيد، حذف المفعول للفعل الأول اكتفاء بفهمه من خـــلال الثاني، وأما المثال: ضربني وضربت زيداً، فالفاعل هو المحذوف في الفعل الأول، ويسوّغ ذكره بعد ذلك أن يحذف وهو العمدة.

ويذهـــب الناطقون باللغة بشجاعة عربيتهم وثقتهم فيها إلى حذف الفعل والفاعل معا، والاكتفاء ببناء مفعول عليهما، ويسد ذكر هذا المفعول في سِياق معيّن عن ذكر جملة الفعل والفاعل، يقول سيبويه:

"هـــذا بـــاب ما جرى من الأمر والنهي على إضمار الفعل المستعمل إظهاره إذا علمت أن الرجلَ مستغن عن لفظك بالفعل.

وذلـــك قولك: زيداً، وعمراً، ورأسَه. وذلك أنك رأيت رجلا يضرب أو يشتم أو يقتل، فاكتفيت بما هو فيه من عمله أن تلفظ له بعلمه فقلت زيدا، أي أوقع عملك بزيد....

وأمـــا النهي فإنه التحذير، كقولك: الأسدَ الأسدَ، والجدارَ الجدارَ، والصبيَ الصبيَ، وإنما نهيـــته أن يقرب الجدار المخوف المائل، أو يقرب الأسد، أو يوطئ الصبي. وإن شاء أظهر في هذه الأشياء ما أضمر من الفعل، فقال: اضرب زيدا، واشتم عمرا، ولا توطئ الصبي، واحـــذر الجـــدار، ولا تقرب الأسد. ومنه أيضا قوله: الطريقَ الطريقَ. إن شاء قال: خل الطريق."[1].

فحذف الفعل وإن كثر في السّياقات الحالية التي تهيئ من عناصر المشاهدة ما يُغني عـــن القـــول، فإنه كثر أيضا في أبواب بعينها، مثل ما ذكر سيبويه في المثال السابق من حذف الفعل جوازاً في بابي الإغراء والتحذير.

وجوّز النّحاة كذلك حذف المفعول به لدلالة السّياق عليه، أو لأن المتكلّم يقصد نـــية معيّـــنة تتحقق بالحذف ولا تكون بالذكر، كان يكون من همه التكثير أو المبالغة أو المـــدح أو التحقير أو الإبهام أو غير ذلك مما ملئت به كتب النّحويين وحتى البلاغيين في أبـــواب المعاني، وأمثل دليل على باب حذف المفعول ما احتواه عبد القاهر الجرجاني في دلائلـــه المعجِزة، وقدّم له بكلماته: " فإني أتبع ذلك ذكر المفعول به إذا حُذِف خصوصاً،

---

[1] : الكتاب، ١/ ٢٥٣-٢٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فـــإن الحاجة إليه أمَسُّ، وهو بما نحن بصدده أخصّ، واللطائف كأنها فيه أكثر، ومما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر." [١]

وهذه التي ذكرت عن الحذف في الجُملة الفعلية إنما هي أمثلة وإشارات، والحقيقة أن أجـــزاء الجُملة الفعلية التي يجوز فيها الحذف كثيرة، وكثر الخلاف حول حذف بعض الوظـــائف فيها، كحذف الحال مثلا، لقولهم إن ما جيء به للتأكيد — والحال منها — لا يجـــوز حذفـــه، لتعارض غايتي التّوكيد مع الحذف، يقول ابن جنّي حول هذه القضية في الخصائص:

" وحـــذف الحـــال لا يحسن. وذلك أن الغرض فيها إنما هو توكيد الخبر بها، وما طريقه طريق التّوكيد غير لائق به الحذف؛ لأنه ضد الغرض ونقيضه. و لأجل ذلك لم يجز أبـــو الحسن توكيد الهاء المحذوفة من الصلة، نحو: الذي ضربت نفسه زيد. على أن يكون نفسه توكيدا للهاء المحذوفة من ضربت، فأما ما أجزناه من حذف الحال في قول الله تعالى: (فمـــن شـــهد منكم الشهر فليصمه) أي فمن شهده صحيحا بالغا، فطريقه أنه لما دلت الدلالـــة عليه من الإجماع والسنة جاز حذفه تخفيفا، وأما لو عريت الحال من هذه القرينة وتجرد الأمر دونها لما جاز حذف الحال على وجه"[٢]

ومن الحذف الجائز أيضا في الجُملة الفعلية، حذف التمييز، الذي يمثّل له ابن هشام في المغـــني: "نحو كم صمت؟ أي كم يوما، وقال تعالى: (عليها تسعة عشر)، (إن يكن مـــنكم عشـــرون صـــابرون)، وهو شاذ في باب نعم نحو: (من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت) أي فبالرخصة أخذ ونعمت رخصةً ."[٣]

---

[١] :عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ١٥٣.

[٢] :ابن جنّي، الخصائص، ٣٧٨/٢.

[٣] : ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ٥٩٨-٥٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفرق بين الحكم الواجِب والجائز:

يحسن بنا قبل اختتام هذا الفصل؛ أن نتنبّه لمناقشة ملحظ قد يُستفاد من النّظر فيه مدُّ مبحث وجوه الجواز ما يضفي عليه إشارة قد لا يُلتفت إليها كثيراً في أعمال من تناول قضية الأحكام النّحويّة عامّة، أو من اقتصر على بعضها كالوجوب أو الجواز..

نقصـــد بهذا إلى محاولة استبانة الفروق القائمة بين الأحكام النّحويّة بنوعيها الجائز والواجِـــب، ومـــا يؤثـــر على هذه الفروق من مؤثرات متعلّقة بسِياق الحال، أو المحيط الخارجي للنصوص الكلاميّة، خاصّة.

ونعرّف هذين النوعين أولا بما استقرّ عليهما القول في معاجم المصطلحات الحديثة، فالجواز: "أحد الأحكام التي تعتري وجوه الكلام وطرق الانتحاء بها، وهو قسيم الوجوب والشذوذ والامتناع والاضطرار.

ومفهوم الجواز إباحة الوجه اللغوي أو النّحوي أو الصرفي بعامّة، دون وجوب أو امتناع. وهذا يقتضي ثنائية الوجوه، أو تعددها في المسألة الواحدة، خلاف الوجوب الذي يقتضي حصر المسألة في وجه واحد لا يتعدّاه".[١]

والوجوب: " أحد الأحكام التي تتصف بها التعبيرات في طرق تركيبها وإعرابها، أو صياغة ألفاظها، وهو في مقابلة الجواز والامتناع والشذوذ.

ويعـــني في حقيقته ضرورة الانتحاء بما يترتب على القاعدة انتحاءً واجِباً لا يسوّغ معه وجه آخر.

ويختـــلف الوجوب عن الجواز في أن الإجماع أو شبهه سمة من سماته، وإن اعتورته حالات نقض معيّنة، فإنما تقع في حدود أقل اتساعاً مما يرد على الجواز"[٢]

وقـــد ذكـــر – آنفاً – في هذا الفصل، أن النّحاة حين استنوا قواعدهم، لم تكن قواعد جامدة أو نهائية، بل كان الخروج عليها مشروعا مادام هذا الخروج له ما يسنده من القـــرائن، ولكن الفرق بين الخروج الواجِب والجائز، أن الواجِب هو شكل استوى على

---

[١] :محمد سمير نجيب اللبدي، معجم المصطلحات النّحويّة والصرفيّة، ٥٩-٦٠.

[٢] :محمد سمير نجيب اللبدي، معجم المصطلحات النّحويّة والصرفيّة، ٢٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سـوقه عند النّحاة، وكأنما يشكل قواعد فرعيّة، تكمّل البناء النّحوي بقواعده الأصول، فهيكل الأحكام الواجبة انبنى جنباً إلى جنب مع ذلك الذي للقواعد الأصلية التي وضعها الـنّحاة لبـناء العربيّة المطّرِد، ومما أعان أحكام الوجوب على أن تتخذ هذه الصورة شبه القارّة، اطّرادها في الصناعة النّحويّة في أبواب مختلفة، فإن كان أصل القاعدة في باب الرّتبة في الجُملة الاسمية أن يتقدّم المبتدأ على خبره، فإن بعض المواضع تفرض وجوب مفارقة هذا الأصـل، كوجـوب تقدّم الخبر إذا كان المبتدأ نكرة وكان الخبر ظرفا أو شبه جملة، أو وجـوب حـذف الخبر بعد لولا، وهذه كما يتضح، مسائل تتعلّق بالتراكيب في بنيتها الداخليّة، بما ليس له مساس مباشر بتأثير البعد الخارجي أو سِياق الحال عليها. وتشيع هذه التراكيب في النّصوص المنقولة عن العرب عند التقعيد للغتهم، فتستطيع أن تمكّن لها وجوداً ثابـتاً في بنـية الأحكام، بما لا تعافه اللغة ولا تستكرهه، ومن أدل ما قد يبين لنا مكانة الحكـم الجائـز مـا يـأتي في هذا الاقتباس المطوّل – لدلالته – من كلام ابن جنّي في خصائصه، يقول:

" إن المفعـول قد شاع عنهم واطّرد من مذاهبهم كثرة تقدّمه على الفاعل، حتى دعا ذاك أبا على إلى أن قال: إن تقدّم المفعول على الفاعل قسم قائم برأسه كما أن تقدّم الفاعل قسم أيضا قائم برأسه، وإن كان تقديم الفاعل أكثر، وقد جاء به الاستعمال مجيئا واسـعا.. فإنه مما تقبله هذه اللغة ولا تعافه ولا تتبشعه .. وهذا يدلك على تمكن الفروع عندهم؛ حتى إن أصولها التي أعطتها حكما من أحكامها قد حارت فاستعادت من فروعها مـا كانـت هي أدّته إليها، وجعلته عطية منها لها، فكذلك أيضا يصير تقديم المفعول لّما استمر وكثر كأنه هو الأصل، وتأخير الفاعل كأنه أيضا هو الأصل .

ومـن ذلك وجوب تأخير المبتدأ إذا كان نكرة وكان الخبر عنه ظرفا، نحو قولهم: عندك مال، وعليك دين، ألا تراه لو كان معرفة لاستمرّ وتوجّه تقديمه، فتقول: البساطان تحـتك، والغـلام لك. أفلا ترى أن ذلك إنما فسد تقديمه لما ذكرناه من قبح تقديم المبتدأ نكـرة في الواجِب، ولكن لو أزلت الكلام إلى غير الواجِب لجاز تقديم النكرة، كقولك: هـل غلام عندك، وما بساط تحتك، فجنيت الفائدة من حيث كنت قد أفدت بنفيك عنه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كـــون البســـاط تحـــته، واستفهامك عن الغلام: أهو عنده أم لا؟ إذ كان هذا معنى جليّاً مفهوماً !

فاعلم إذا أنه لا تنقض مرتبة إلا لأمر حادث فتأمله وابحث عنه."[1]

ومع هذا الاطّراد للحكم الواجِب، إلا أن عبارة ابن جنّي الأخيرة، تنبّه بما لا يدع مجـــالاً للشـــك أن رعايتهم لأصولهم مما لا يغيب عن همّهم، فحكم الخروج عن القاعدة الأصـــلية، والذي يتخذ صفة الوجوب، لا يكون إلا لأمر حادث، أي طارئ على البنود التي روعيت عند وضع القاعدة الأصلية. والتي تصف الأغلب الأعم من المنطوق والمنقول عن سلائق الفصحاء ممن اصطفتهم شروط الجمع اللغوي في عصره ومداه.

وأمـــا الحكم بالجواز، فهذا مما يثري العربيّة وينميها، ويجعل القاعدة النّحويّة مرنة مطواعة، قادرة على استيعاب شتى الاحتمالات، ومن ثم كان الاتساع في القاعدة سمة من سمات العربيّة، ولا تثريب على النّحاة فيما ذهبوا إليه من أوجه مختلفة، لأنهم يعتمدون في ذلـــك على أصول صحيحة فصيحة من كلام العرب.[2]ولا يعني هذا أن الجواز ضرب من الفوضـــى، التي تضيع حكم النّحو، أو تفقده كلمته الحاسمة، بل هذا النوع من الأحكام مقيّد بضوابط المعنى الذي يحيط بالحدث الكلامي.

وعـــلى الرغم مما ذهب إليه بعض المحدثين[3] من الادّعاء على النّحاة العرب إهمالهم المعنى، وإغفالهم إياه في تقعيدهم للمادة اللغوية، فإن الإلماح إلى كثير من أحكامهم الجائزة ينبئ وبقوة على اعتدادهم المعنى فيصلا مباشرا في كثير من الأحكام، ويأتي سِياق الحال أو المقـــام بما يعضد المعنى ويقويه، ويفيد النّص الكلامي، والأقوال المُجرّدة أبعاداً لا يُتوصل إليها لدى الإغماض عن هذه المؤشرات الحاسمة.

والأحكام الجائزة على الوجوه النّحويّة– كثير منها – إنما تتخذ هيأتها النهائية مما يتعلق بمتعاطي هذه الوجوه، ومستخدمي هذه اللغة من نوايا وإرادات واكتفاء في التّواصل والتفاهم، غير منقطعين عن بيئاتهم وثقافاتهم وأحوالهم المختلفة، ولما كان الجواز في بعض

---

[1] :ابن جنّي، الخصائص، ١/٢٩٥-٣٠٠.

[2] : محمد علي عبد الله، الجواز في النّحو العربي، ٤٤٤.

[3] : انظر مثالا على هذا عند إبراهيم مصطفى في إحياء النّحو، ٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معانـــيه يشـــير إلى التسامح[١]، فإن هذا ينطبق على معنى الجواز الاصطلاحي أيضا، حيث يتســـمّح الحكم بإيراد أكثر من وجه في الموضع الواحد، ويختلف النّحاة في ترجيحهم من بعـــد للوجـــوه بعضها على بعض، بما استقرّ في زعم كل منهم وتقديره واختلاف تأويله للحدث الكلامي بأبعاده المتداخلة.

ولعـــلّ إيـــراد أمثلة على التقابل بين الأحكام الواجبة والجائزة مما يتعين على مقام القـــول هـــنا، ولعلّ مثالا من الحذف يُجلّي صورة جيّدة، لما للحكم بالحذف من تعلق شديد بالسّياق، ولتنازعه بقوة بين الوجوب والجواز، وهذا نص من معاني النّحو يقول فيه صـــاحبه: " والحذف لا يكون في العمدة ولا في الفضلة إلا بالقرائن ، فإن العمدة تحذف جوازاً ووجوباً كالفضلة، وذلك كحذف كل من المبتدأ و الخبر جوازاً ووجوباً، وحذف عـــامل الإغراء والتحذير جوازاً ووجوباً . وهذه كلها عمد . ويحذف المفعول به والحال وغيرهما من الفضلات[٢].

إن هـــذا النّص يشير إلى ما بين النوعين من الأحكام من تشابه في استواء دخولهما على العمد أو الفضلات شرط توافر القرائن الدالّة، وهذا ما سبق أن أكده هذا المبحث من أن الخروج على القاعدة الأصلية محكوم بلا ريب بتوافر القرائن.

ولـــيس من المبالغة أن يقال : إن كلمة "وجوباً " و"جوازاً " في بناء القواعد مبنية على مراعاة الحَدْس في النّحو العربي[٣].

ونقصـــد بالحَدْس استجلاء أسرار كامنة في الموقف الكلامي التي تجوز بالمثال عن قـــاعدة أصيلة يحفظها النّحاة، إلى قاعدة لا يتبشّعونها، وهذه الأسرار الكلامية إن خلصت للتركيب الداخلي للكلام واطّردت في ورودها عليه نالت حكما واجبا، وهي إن تشبثت بالمحيط الخارجي للحدث الكلامي وما عليه متعاطيه، اكتسبت أحكاما جائزة، ذات وجوه مـــتعددة، يسكت عنها النّحاة، غير غافلين، وإنما ملحقيها بمن هو أهل لها ممن يحتاج أن يكون له في وجوه القول أبعادٌ لا تنحصر، ومنافذ لا تنغلق.

---

[١] : راجع ص ـــ من هذه الرسالة، ومادة (ج.و.ز) في لسان العرب.

[٢] :فاضل السامرائي، معاني النّحو ، ١٤/١

[٣] :محمود الجاسم، التأويل النّحوي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ٣٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني:

سياق الحال

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مدخل:

يعـــرض هـــذا الفصل للحديث عن "سِياق الحال" الذي يعد محدّداً لدراسة وجوه الجـــواز النّحوي في هذه الدراسة، ويتخذ ضابطاً تقف إليه صور الخروج المختلفة في البِنْية العربيّة، ويستدعي الحديث عن هذا الملحظ، الوقوف عليه في حدّه وتسميته ومرادفاته في الدّرس اللساني قديمه وحديثه، ثم تقصّيه في أعمال اللغويين العرب القدماء، والتعريج عليه عند اللغويين المحدثين الذين وضعوا تسميته، أو مهدوا لذلك،ثم بنوا عليه في مدارس لسانية متداخلة، ويتوقف الفصل كذلك عند سِياق الحال في بنيته ومكوناته..

في الحد والمفهوم:

"سِـــياق الحال" مصطلح مركب تركيبا إضافيا، دعا إلى التركيب فيه بيان افتراقه عن مصطلح "سِياق المقال"، أو التحديد له عوضا عن الإطلاق في لفظة " السّياق" التي قد تُفضـــي إلى معـــان متداخلة، حيث إن كلمة السّياق وإن كانت مفردة من حيث الصيغة اللغوية تدل على تعددية هائلة مثل إحالتها إلى السّياق الثقافي، والسّياق الخارجي (سِياق التخاطـــب) والسّـــياق الداخلي (علاقات الأجزاء)، والسّياق اللغوي (تركيب الجُملة والعلاقات بين الجمل)[1] ..الخ.

ففي لسان العرب يأتي السّياق بمعنى المتابعة، ومنه ساق الإبل يسوقها سوقا وسِياقا، وتساوقت الإبل أي تتابعت[2]،وفي أساس البلاغة يذكر الزمخشري لفظة السّياق حين يقول: ("وهـــو يســـوق الحديـــث أحسن سِياق" " وهذا الكلام مساقه كذا" " وإليك يُساق الحديث")[3]،ويعدّ هذا من المجاز لما فيه من تشبيه سوق الكلام بسوق الإبل. إلا أن عامل الزمن يذهب بلفظة السّياق واستخدامها في تتابع الكلام وينتهي بها إلى ما يشبه المصطلح

---

[1] : نصر حامد أبو زيد، النص، السلطة، الحقيقة، ٩٦.

[2] :لسان العرب، مادة س. و. ق.

[3] :الزمخشري، أساس البلاغة: ٢١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحقـــيقي (لا المجـــازي)، فـــيعرّف المعجم الوسيط ساق الحديث بقوله: سرده وسلسله وساوقه وتابعه وسايره وجاراه، وسِياق الكلام: تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه[١].

وفي المعـــاجم اللسانية الحديثة يعرف السّياق بأنه: " البيئة اللغوية المحيطة بالوحدة الصـــوتية أو الوحـــدة البنويّة الصغرى، أو بالكلمة أو الجُملة، ويعني الوحدات التي تسبق وتـــلي وحدة لغوية محددة، كما يعني هذا التعبير مجموعة العوامل الاجتماعية التي يمكن أن تؤخـــذ بعـــين الاعتـــبار لدراســـة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللغوي"[٢]، وفي معجم ثان يعرّف السّياق بأنه " بنية الكلام ومحيطه وقرائنه" [٣].

وأمـــا "سِـــياق الحال" فهو مصطلح يتناوب مع عدة مصطلحات أخرى سواء في تصـــانيف اللغويـــين العـــرب القدماء، أو في مؤلفات اللسانيين المحدثين، وكلها – أي المصـــطلحات – تقـــارب وصـــف الإتيان بالكلام وفق هيئة مخصوصة يراعى فيها البعد الخارجي للغة، وقد استعمل مالينوفسكي ذلك المصطلح Context of Situation والذي يعني سِياق الحال ويساوي " الماجريات" بهذا التحديد والتخصيص بعد أن كانت كـــلمة السّياق Context متداولة بين اللغويين من قبله، وما تزال متداولة بينهم، ثم إن هذا المصطلح تطوّر تطوراً آخر باستعمال فيرث له في دراسته اللغوية – كما سيتبين فيما يقدّم من الفصل- و" سِياق الحال " عنده نوع من التجريد من البيئة أو الوسط الذي يقع فيه الكلام، وهذا التجريد يقوم به اللغويون للوفاء بدراستهم. وسِياق الحال يشمل أنواع النشاط اللغوي جميعا كلاما وكتابة.[٤]

وسيتضـــح فيما يأتي أن اللغويين العرب عرفوا هذا المعنى منذ القديم، وإن اختلفت فيه تسمياتهم، فسِياق الحال هو الحال المشاهدة، وهو مقتضى الحال أو الظاهر، وهو المقام، وهو القرائن الحالية، وهو الاعتبار، وهو النِّصبة كذلك، والأخيرة لفظة أطلقها الجاحظ في مصنفه (البيان والتبيين)، وأراد بها الحال الدالة التي تُغني عن مجموع صور الدلالة،يقول: " وجمـــيع أصـــناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا

---

[١] : المعجم الوسيط: ٤٦٥.

[٢] : مازن المبارك، معجم المصطلحات اللسانية، ٦١.

[٣] : محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النّظري،٥٧.

[٤] :محمود السعران: علم اللغة" مقدمة للقارئ العربي" ٣١. بتصرّف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تزيد، أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نِصبة، والنّصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصّر عن تلك الدلالات"[١]، ويقول عنها أيضاً: "وأما النّصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد..."[٢]

والحال ذاته في تعدد المصطلح نجده في اللسانيّات الحديثة، فقد يطلق بعض اللسانيين لفظة السّياق مجردة ويعنون بها سِياق الحال، ويسميها البعض: القرينة الحالية، أو سِياق الموقف، أو سِياق مواقفي، ويعنى بها مجموع العوامل والظروف الاجتماعية وخاصّة الثقافية التي أحاطت، وتحيط بالمتكلّم والسامع.[٣]

في الدّرس اللغوي العربي القديم:

تنبه العرب، علماؤهم اللغويون، إلى الأثر الذي يحدثه البعد الخارجي للغة (أي محيطها بما يشمل من متكلم وسامع وظروف متنوعة) على تحديد معان للألفاظ، واختيارات للتراكيب، ومفاضلة بين الأساليب. بيد أن تسمياتهم لهذا البعد قد تنوعت — كما ذكرنا سابقًا، ولعلّ مثل هذا الاهتمام بالسّياق كان متعيّناً ممن تحتم عليهم علومهم استخدام اللغة وسيلة لمقاربة درسهم المخصوص، ويظهر هذا جلياً عند المفسرين، كما عند البلاغيين والأصوليين والفقهاء، فأما المفسرون فتشتد حاجتهم إلى النّظر في البعد الخارجي، لأنهم بصدد مقاربة نصّ مقدّس تنزّل في أسباب معينة، وأحيطت به ظروف توجه فهمه وتأويله، وفي هذا يقول الزركشي في برهانه: " ليكن محط نظر المفسّر مراعاة النظم الذي سيق له الكلام، وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التّجوّز، ولهذا تجد صاحب الكشّاف يجعل الذي سيق له الكلام مُعتمداً "[٤].ومثل هذا كثير جداً في عناية المفسّرين، من اعتنى منهم بأسباب النزول خاصّة، ولا يشاء البحث هنا الدخول في تفاصيل دور السّياق في العلوم المجاورة للدراسة اللغوية الخاصّة، وإنما يعنينا التمثيل للتنوع

---

[١] : الجاحظ، البيان والتبيين، ٧٦/١.

[٢] : الجاحظ، البيان والتبيين، ٨١/١

[٣] :عدنان بن ذريل، اللغة والدلالة: ١٦٠.

[٤] : الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ١٨/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في المصـــطلح عـــند علماء العربيّة في القديم، الذين تفطّنوا لمدى أهميته في توجيه أحوال الكلام.

وإن كان النّحويّون قد أشاروا إلى مقصودهم بالبعد الخارجي إلى "الحال المشاهدة" أو "شاهد الحال" فإن البلاغيين اختار كثير منهم إطلاق مقتضى الحال أو المقام على البعد الخـــارجي، فهـــذا السكاكي يورد هذا المصطلح في مفتاحه، يقول: " ثم إذا شرعت في الكلام، فلكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول، وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الـــذي نسميه مقتضى الحال. فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده من مؤكدات الحكم، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحلّيه بشيء من ذلـــك بحســـب المقتضى قوة وضعفاً.."[١] وهو المصطلح نفسه الذي يرد لدى القزويني في إيضـــاحه: "بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقتضى الحال مختلف، فمقـــام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام التّقديم يباين مقام التّأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ...وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام.."[٢].

ويتـــبادل مصطلح المقام مع مقتضى الحال مواقعهما لدى البلاغيين في مقصدهم للأمـــر ذاته، ولفظة المقام هذه قديمة ترد إلى الجاحظ وربما إلى ما قبل ذلك، فهو يقول في بـــيانه: " وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال.. "[٣]

ومع أن علماء العربيّة الأوائل استعملوا تلك المصطلحات جميعها للدلالة على البعد الخـــارجي للغة، إلا أن هذا الأمر كان متأخّراً نسبيا عن الوقت الذي كانوا يصدرون فيه عـــن مراعاةٍ لهذا البعد دون نسبته إلى مصطلح بعينه، وهذا شأن الدراسات والعلوم على اخـــتلافها؛ تـــبدأ عامـــة كأنظار مبعثرة تنطلق مما يشبه الحَدْس الخالص، ثم يبدأ تقييدها

---

[١] :السكاكي: مفتاح العلوم

[٢] : القزويني، الإيضاح، ١/٨٦-٨٧.

[٣] :الجاحظ، البيان والتبيين:١/٨٥-٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالمصطلح والحد، والتقعيد لها بالحكم والأصل، فتُمنح إثر ذلك مسميات قارّة تعرّف بها، وتشير إليها.

إن الـــنّحاة حين تصدّوا لوصف الظاهرة النّحويّة، ولرسم حدود العربيّة، صدروا عن مُلاحظة اطّراد الظواهر الذاتية للغة في الأمثلة والشواهد، ومن ثمّ قعّدوا اللغة في ميادين النّحو والصرف والصوتيات، وحاولوا تفسير هذه الظواهر بمُلاحظة علاقة العناصر اللغوية باعتـــبار هيـــئاتها الشكلية ومواقعها. كما أنهم اعتدوا المعنى ملحظاً ضروريا في استكمال التحلـــيل وعمـــل المعـــربين، ولحظوا مستوى البِنْية الصرفية، ورصدوا علاقات التركيب بمُلاحظـــة ثابتة لطبيعة الصيغة في أبنية الكلم، وذلك أمر مذكور لأولئك النّحاة. ولكنهم تجاوزوا فوق هذا في رسم معالم النّظام اللغوي حدود النّص الذاتية، ومادة العبارة الكلامية إلى محـــيط الحـــدث الكلامي أو السّياق الخارجي، والمتغيرات الخارجية التي تكتنف مادة الكلام، واعتبروه أصلا في وصف الظاهرة اللغوية وتفسيرها.[1]

وفي عودتـــنا إلى المصنفات اللغوية العربيّة التّراثية، نلحظ بعد شيء من إنعام النّظر أن القدمـــاء قـــد أولوا عناية بارزة لهذا الملحظ غير المصرح به باطّراد، سواء أكان ميدان عمـــلهم في الأصوات أو الصرف أو النّحو أو المعجم أو الدلالة، وعلى الرغم من تحديد فـــترة التقعـــيد، بل وبيئته كذلك، فإن أصول المادة التي كانوا يحاولون استنباط قواعدهم المحكمة أو المطّرِدة منها، وطرائق جمع هذه المادة، وأسس الأخذ منها، كل أولئك يشير إلى أن عملهم في مجمله لم يحرم من النّظر الاجتماعي للغة بصورة أو بأخرى، سواء أكان هذا مـــنهم بقصـــد أو بغير قصد. ذلك أنهم لم يقتصروا في عملهم على النّظر إلى بنية النّص اللغـــوي، كما لو كان شكلا منعزلا عن العوامل الخارجية التي تلفّه وتحيط به، كما يفعل البنـــيويون والتحويلـــيون من الدارسين في العصر الحديث، وإنما أخذوا مادتهم اللغوية من معالجتهم لها على أنها ضرب من النشاط الإنساني الذي يتفاعل مع محيطه وظروفه والذي قد تتغير صوره بتغير هذا المحيط وتلك الظروف،كما فطنوا إلى أن الكلام له وظيفة ومعنى

[1] :نهاد الموسى، الأعراف:١٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في عمليـــة التّواصل الاجتماعي، وأن هذه الوظيفة وذلك المعنى لهما ارتباط وثيق بسِياق الحال أو المقام وما فيه من شخوص وأحداث.[١]

ولا يـــتوقف نظـــرهم ذلـــك على مرحلة الجمع التي ترمي إلى استنباط القواعد، وإحكام أساليب التقعيد، وإنما جاوزته لتغدو هذه النّظرة أو هذا الملحظ أصلاً آخر يُضاف إلى أصـــول نظـــرية النّحاة العرب.[٢]وعليه فإن الضوابط اللغوية وغير اللغوية تتداخل في نصوصهم وتحليلاتهم بشكل يخرج اللغة من إطارها الذاتي المجرّد، ويضفي على النّحو صبغة مـــن الحـــيوية، تسهم بدور فعّال في رسم تصور دقيق لفهم طبيعة اللغة وأبعادها المتنوعة وتجلّياتها المختلفة، وهذا التداخل لا يعني اضطراباً في المنهج، ولا خطأ في التّصوُّر بقدر ما يعكس فهما صحيحا للغة في بعديها الذاتي الداخلي، والوظيفي الخارجي. إذ يبدو واضحا مـــن نصوصـــهم أن الالتفات إلى الملابسات الخارجية للغة واعتمادها ضوابط إضافية في تفسير كثير من صورها المتنوعة لا يصطدم ولا يتناقض مع الضوابط الداخلية؛ بل إنه على العكس من ذلك، يساهم في الإحساس باللغة والتفاعل معها.[٣]

ولـــيس ممـــا يعني الفصل – وهذا سِياقه – الوقوف للتفرقة بين المراحل اللغوية الـــثلاث التي سار عليها الدّرس اللغوي العربي القديم (من نطق الأعراب للغة وصدورهم عـــن فطـــرة واحدة، ثم جمع النّحاة الأوائل للكلام من أفواه قائليه والنّظر فيه، إلى ضبط المنظّرين فيما بعد للأصول التي اتبعها النّحاة في عملهم) بقدر ما يعنيه تلمّس اتجاه لغوي بعينه انشعب في أعمالهم، هذا الاتجاه الذي يُعنى بالمحيط الخارجي للغة فاعلا ومنفعلاً، وفي سبيل ذلك يتعين هنا إيراد شيء من الأمثلة الدالة على هذا الوعي المستبطن.

وأول مـــا نستحضره في استطلاع ملاحظات النّحاة العرب على هذا الصعيد ما يقـــررونه بقولهم: " الكلام ما تحصل به الفائدة؛ سواء أكان لفظا أو إشارة أو ما نطق به لســـان الحـــال"[٤]ومؤداه واضح ، فإن تجليات الكلام لديهم أربعة؛ اثنان منها ينتسبان إلى

---

[١] :كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، ٧٤.

[٢] :نهاد الموسى، الأعراف: ١٥٠.

[٣] :لطيفة النجّار، مزلة المعنى في نظرية النّحو العربي: ١٠١.

[٤] : ابن هشام: شذور الذهب،١/٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحـــيط الخارجي الذي يكتنف موقف الخطاب، وهما الإشارة ووقائع الحال المحسّة.[١] وهذا التنـــبه الذي كان من ابن هشام في تعريفه الكلام مع مُلاحظة البعد الخارجي المؤثر عليه، هـــو ما يلحظه – على أخرة – علماء اللغة الاجتماعيون، والمعنيّون بتتبع خواص اللغة في بعدهـــا الاجتماعي، وهي في اللسانيّات الغربية قد افتتحت بأبي علم اللغة الحديث (دي سوســـير)، في تفـــريقه بين اللغة والكلام، وظل اللغويّون من بعده يتناولون هذه الظاهرة ويقلبون فيها الرأي والنّظر، يقول تمّام حسّان: " فالكلام عمل، واللغة حدود هذا العمل، والكـــلام سلوك، واللغة معايير هذا السلوك، والكلام نشاط، واللغة قواعد هذا النشاط، والكـــلام حـــركة، واللغة نظام هذه الحركة، والكلام يحس بالسمع نطقا والبصر كتابة، واللغة تفهم بالتأمل في الكلام. فالذي نقوله أو نكتبه كلام، والذي نقول بحسبه ونكتب بحسبه هو اللغة، فالكلام هو المنطوق وهو المكتوب، واللغة هي الموصوفة في كتب القواعد وفقه اللغة والمعجم ونحوها. والكلام قد يحدث أن يكون عملا فرديّاً، ولكن اللغة لا تكون إلا اجتماعيّة."[٢]

ولا يحوجـــنا النّظر في أعمال النّحاة الأوائل إلى الانتظار إلى قرن ابن هشام، لنقع على أنظار اجتماعية في دراية اللغة، بل على العكس من ذلك، فإننا مع سيبويه نجد كفاية ووفرة من الأدلة على ما نحن بصدد الإشارة إليه، من تبصّرهم – أي النّحاة العرب – بما لأبعاد سِياق الحال من أثر في تقدير الإعراب وتفسير المعنى، فهذا إمام النّحاة يلتقي بأعماله مـــع أحـــدث الاتجاهات اللغوية مع تباعد الزمن والشقة، إذ كان يعوّل على سِياق الحال كثيراً، فتكثر في كتابه الإشارة إلى فهم المخاطَب والاستغناء عن بعض العناصر اللغوية في الجُملـــة بناء على فهم المخاطَب والسّياق الخارجي الذي يجري فيه الكلام. ولذلك يلحظ قـــارئ الكـــتاب أن سيبويه في مواطن كثيرة يُعنى بوصف الموقف الذي يجري فيه الكلام واستعماله[٣] وما يلابس هذا الاستعمال من حال المخاطَب وحال المتكلّم وموضوع الكلام. وقد هداه هذا الاتساع إلى استكناه البِنْية الجوّانية للتركيب النّحوي، ورسم خطوط هادية

---

[١] :نهاد الموسى، الأعراف: ١٥٠.

[٢] : تمام حسان: اللغة العربيّة معناها ومبناها: ٣٢.

[٣] :محمد حماسة عبد اللطيف: النّحو والدلالة: ١١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في تعـــلم العربيّة تعلّماً يضع كل تركيب موضعه ويعرف لكل مقال مقامه[١].وكان سيبويه يعد الموقف الكلامي بملابساته كُلا واحداً، فيغتفر حذف أحد العناصر من الجُملة إذا كان في سِياقها الكلامي دليل عليه، ويبلغ سيبويه من اعتبار موقف الاستعمال أن يجعله فيصلا في الحكم بصحة التراكيب النّحويّة وخطئها. ومن ذلك أننا نراه يقف إلى الجُملة الواحدة فـــيحكم عليها في موقف من الاستعمال بأنها خطأ ، وفي موقف من الاستعمال آخر بأنها صـــواب. وهذه الجُملة – لو اكتفي بالنّظرة الشكلية الذاتية – جملة نحْويّة جائزة، ولكن اللغـــة عـــنده لم تكـــن تنْفَكّ عن ملابسات استعمالها، ومقاييس اللغة عنده تستمد من معطـــيات النّظام الداخلي للبناء اللغوي كما تستمد من معطيات السّياق الاجتماعي التي تكتنف الاستعمال اللغوي.[٢]

وهـــذا مـــا نجد أمثلته في الكتاب، في حكمه على جملة واحدة، بأحكام مختلفة، لاخـــتلاف السّياق الذي تنطق فيه، يقول في جملة " أنا عبد الله منطلقا " "...وذلك أن رجـــلا من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبد الله منطلقا، وهو زيد منطلقا، كان محالاً، لأنه إنما أراد أن يخبرك بالانطلاق، ولم يقل هو ولا أنـــا حتى استغنيت أنت عن التسمية. لأن هو وأنا علامتان للمضمر، وإنما يضمر إذا علم أنك قد عرفت من يعني. إلا أن رجلاً لو كان خلف حائط، أو في موضع تجهله فيه، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله منطلقا في حاجتك، كان حسنا."[٣]

ويظهـــر في هذا النّص إدراك عميق للوظيفة الأساسيّة للغة، أعني وظيفة الاتصال. فإنـــه لفهم وظيفة اللغة من حيث هي آلة يجب أن ينظر إليها في إطار عوامل رئيسة ثلاثة ينـــتظمها الموقف الكلامي، وهي: المتكلّم والمستمع والأشياء (أي عناصر الموقف المحسّة وأوضاعها) التي هي موضوع الكلام.[٤]

---

[١] : نهاد الموسى،نظرية النّحو العربي: ٨٨.

[٢] : نهاد الموسى، الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في كتابه، ٨١/٢، وانظر للاستزادة حول هذا المعنى: نهاد الموسى، نظرية النّحو العربي: ٨٥-٩٧

[٣] : الكتاب، ٨٠/١- ٨١. وانظر : نهاد الموسى، الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في الكتاب.

[٤] : نهاد الموسى، نظرية النّحو العربي، ٨٤-٨٥..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولـــيس هذا الفصل معنياً بتتبع مواطن تأثير كلٍ من مؤلفات موقف الخطاب على توجـــيه الإعـــراب أو اختـــيار حكم نحوي دون غيره – فهذا مكانه الفصل الثالث من الأطـــروحة – ولكـــن الحديث عن سِياق الحال، تجلّيه عند القدماء بوصفه أصلا مجرّدا، يدفعنا هنا إلى إيراد بعض الأمثلة الدالة والمجلّية له، فهذا الأثر قد يرد في أمثلتهم بإلماحات خفـــيّة لا تكاد تبين إلا بالفحص الدقيق لتلك الأمثلة، ويقع مثل هذا كثيرا عند سيبويه، فمـــن أمـــثلة الكتاب التي يفاضل فيها بين وجه إعرابي وآخر، بما يكون في نفس المتكلّم ونيّـــته، بقطع النّظر عما يكون من دواعي التركيب، أن يقول في إعراب " دار" في بيت عمر بن أبي ربيعة:

دارٌ لمروةَ إذ أهلي وأهلُهم بالكانِسيَّة نرعى اللهوَ والغزلا

" فـــإذا رفعت فالذي في نفسك ما أظهرت، وإذا نصبت فالذي في نفسك غير ما أظهـــرت"[1] والـــرّفع يكون على ظاهر البيت بالابتداء، أما النّصب فلتقدير ناصب أضمره المتكلّم مستغنيا عن إظهاره، كأن يقصد (اذكر داراً لمروة).

وإن كـــان شـــيخ الـــنّحاة يدفعنا إلى طول التأمل والنّظر في مقاماته لاستجلاء مقصدنا، فإن عالم العربيّة المبرّز ابن جنّي يبسط لنا من تفرّده في دقة المُلاحظة وبعد النّظر مـــا يمكننا من تحقيق القول في ما نحن بصدده دونما كبير عناء ! فيشير إلى أن الأولين من المتكلّمين بالعربيّة " قد أحَسّوا ما أحَسسنا، وأرادوا وقصدوا ما نسَبنا إليهم إرادته وقصده شيئان: أحدهما حاضر معنا والآخر غائب عنا، إلا أنه مع أدنى تأمل في حكم الحاضر معنا. فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب ووجوهها، وتضطر إلى معرفته من أغراضها وقصودها، من استخفافها شيئا أو استثقاله وتقبله أو إنكاره والأنس بـــه أو الاسْـــتيحاش منه والرضا به أو التعجب من قائله وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقُصود بل الحالفة على ما في النفوس"[2].

ويـــتجاوز في تفطّـــنه الوقوف إلى الأحوال الشاهدة ليعرض شيئا من لوازمها من عـــناية المتكلّم وإقبال المخاطَب، والحال التي عليها كل منهما، فهو يقرر" أن الإنسان إذا

---

[1] :الكتاب: ١/٢٨٠.

[2] : ابن جنّي، الخصائص، ١/٢٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عـــناه أمر فأراد أن يخاطب به صاحبه، وينعم تصويره له في نفسه، استعطفه ليقبل عليه، فيقول له: يا فلان أين أنت ؟ أرني وجهك! أقبل على أحدثك! أما أنت حاضر يا هناه؟! فإذا أقبل عليه وأصغى إليه، اندفع يحدثه أو يأمره أو ينهاه، أو نحو ذلك. فلو كان استماع الأذن مغنـــيا عـــن مقابلة العين مجزئا عنه لما تكلف القائل ولا كلف صاحبه الإقبال عليه والإصغاء إليه...وعلى ذلك قالوا: رب إشارة أبلغ من عبارة.. وقال لي بعض مشايخنا – رحمه الله- : أنا لا أحسن أن أكلم إنسانا في الظلمة"[1]

ويـــنطلق القول بابن جنّي في هذا الباب، وكأنما قد امتلأ باستشعار أهمية حضور أركـــان الموقف الكلامي أجمعها، لتمد المنطوق اللفظي بياناً لا يكون كاملاً بإغفالها، فلا يقف للتنظير لهذا بل يحقق نظرته بالتمثيل، "ألا ترى إلى قوله:

تقول وصَكّت وجْهَها بيمينِها أَبعْلي هذا بالرّحى المتقاعِسِ

فلو قال حاكيا عنها: أبعلي هذا بالرحى المتقاعس، من غير أن يذكر صكّ الوجه لأعلمـــنا بذلك أنها كانت مُتعجبة مُنكرة، لكنه لما حكى الحال فقال: وصكت وجهها، عـــلم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصورة لها هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لهـــا، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين، وقد قيل ليس المخـــبر كالمعاين، ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله: وصكت وجهها، لم نعـــرف به حقيقة تعاظم الأمر لها، وليست كل حكاية تروى لنا ولا كل خبر ينقل إلينا يشـــفع بـــه شـــرح الأحوال التابعة له المقترنة –كانت –به. نعم ولو نقلت إلينا لم نفد بسماعها ما كنا نفيده لو حضرناها."[2]

إن ابن جنّي يصدر عن ثقة بالغة بما للحال المشاهدة من دور في التّواصل الخطابي بـــين أطـــراف الموقـــف الكلامي، فلا يتوقف عند ما سبق عرضه بل يسترسل في ذلك بشروحه وكأنه يُنظّر لفكرة متكاملة في وعيه: " ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور مـــا لا تؤديه الحكايات، ولا تضبطه الروايات، فتُضطر إلى قُصود العرب وغوامض ما في أنفسها، حتى لو حلَف منهم حالفٌ على غرضٍ دلته عليه إشارةٌ لا عبارة؛ لكان عند نفسه

---

[1] : ابن جنّي، الخصائص، ١/٢٤٦.

[2] :ابن جنّي ، الخصائص،١/٢٤٥-٢٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعـــند جميع من يحضر حاله صادقا فيه غير مُتهم الرأيّ والنَّحيزة والعَقل.فهذا حديث ما غاب عنا فلم ينقل إلينا وكأنه حاضرٌ معنا مناج لنا.."[١]

وهكـــذا يقرر أبو الفتح بما لا يدع مجالا لريبٍ أن هذا الأصل اللغوي في مقاربة الكـــلام وإحكامـــه كان مُستدخلا في بصيرتهم الفاحصة، التي توجّه عنايتها عند التحليل الـــنّحوي إلى كـــل مـــا يلابس الكلام، ليس فقط في بعده الداخلي، بل وما يكتنفه من مؤثرات خارجيّة، لا يصح – في ظنّهم – أن تغيب أو أن تُقصى!

وبهذا القدر من العناية يمضي علماء اللغة من تأخّر منهم عن عهد الأوائل على ما كان عليه سلفهم، فنجد الإشارات ذاتها لا يكاد يخلو منها مصنّف نحوي مستبصر، فهذا ابـــن يعيش يقول في شرحه للمفصّل: "اعلم أن المبتدأ والخبر جملة مفيدة، تحصل الفائدة بمجموعهمـــا، فالمبتدأ معتمد الفائدة، والخبر محل الفائدة، فلا بد منهما، إلا أنه قد توجد قريـــنة لفظية أو حالية، تغني عن النطق بأحدهما، فيحذف لدلالتها عليه، لأن الألفاظ إنما جيء بها للدلالة على المعنى، فإذا فهم المعنى بدون اللفظ جاز أن لا تأتي به، ويكون مرادا حُكمًـــا وتقديراً.."[٢] ويكرر المعنى نفسه في موضع آخر: " إن قرائن الأحوال قد تغني عن اللفظ، وذلك أن المراد من اللفظ الدلالة على المعنى، فإذا ظهر المعنى بقرينة حالية أو بغيرها لم يحتج إلى اللفظ المطابق، فإن أتي باللفظ المطابق جاز، وكان كالتأكيد، وإن لم يؤت به فللاستغناء عنه" [٣].

وهذا الرضي الاستراباذي في شرحه الكافية يقرر:" فقرينة ما حذف جائزاً حضور معـــناه، كقولك للمسافر: راشدا مهديّاً.."[٤]فقوله حضور معناه أي معنى الفعل المحذوف، ماثلـــة في سِـــياق الخطـــاب، كأنّك تسمع المودّعين وتراهم يشدّون على يد مسافرهم يرددون: سر راشداً مهديّاً ! فمقام الكلام يُغني بلا شك عندهم عن التكثر في المقال، وهم من هم في إيثارهم للإيجاز والتخفف مما لا طائل منه.

---

[١] : ابن جنّي، الخصائص١/٢٤٨.

[٢] : ابن يعيش، شرح المفصل: ١/٩٤.

[٣] ابن يعيش، شرح المفصل :١/١٢٥

[٤] :الرضي: شرح الكافية: ٢/٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومـــن كل ما سبق يستنتج أن النّحاة عكفوا على دراسة المبنى لاستنباط قواعدهم مـــن خـــلال عملـــية استقراءٍ لكلام العرب، أي أنهم استنبطوا قواعدهم باستقراء الأداء Performance الـــذي يتلقاه المتلقّي، وكانوا يرمون من وضع قواعدهم إلى غايتين؛ الأولى: إعانة المتلقي على تجنب الخطأ في فهم المعنى المستفاد من أي مبنى يتلقّاه، والثانية: إعانـــة المـــتكلّم على الحذو على تلك القواعد في كل أداء يؤدّيه[١] وبناء عليه نستطيع أن نفترض أن بنية النّحو العربي قامت على أساس نحوي تركيبي، واتخذت من الأبعاد الأخرى ضـــوابط وموجّهات توجّه حركة العناصر في التركيب وتحكم عليها من حيث الاستقامة والقبول[٢].

وقـــد كان واضحا في عمل النّحاة عدم تعمدهم إلى صوغ نظرية تصف طريقتهم في الأداء، وصـــدورهم لا عن أصول مصرح بها، أو معتنى بتسميتها، كما هو الحال عند اللســـانيين المحدثـــين، ومع ذلك فإن " عدم التصريح بالأصول والمبادئ النّظريّة في أعمال النّحاة لا يعني خلو تلك الأعمال من أبعاد وتصوّرات انبنت عليها تحليلاتهم ودراستهم، إذ لا يمكن أن يقوم النّحو العربي بأبوابه وصوره المتنوعة وقوانينه المختلفة والعلائق التي تربط بين عناصره المتعددة من دون مبادئ نظرية مخصوصة تصف المعطيات، وتحللها وتضعها في موقعهـــا من بناء العربيّة. فطرائق الوصف والتحليل في أعمال النّحاة وغيرهم من مفكري الحضـــارة العربيّة تميل إلى التطبيق، وتتخذ من المثال المستعمل دليلا على الأصل المستنتج؛ الـــذي يشـــكّل فيما بعد ضابطاً يوجّه النّظر ويضبط الوصف. والناظر في أي كتاب من كتب النّحاة، وبخاصّة المتقدّمين منهم، يرى ذلك بوضوح؛ فالمثال يقف دالاً على كثير من أصولهم وضوابطهم، بل إنهم قد يكتفون به لتوضيح فكرة أساسية هامّة تنبني عليها مجموعة من القواعد والأحكام العامة"[٣].

---

[١] : مصطفى حميدة: نظام الارتباط والربط في تركيب الجُملة العربيّة٢١.

[٢] : لطيفة النجّار: منزلة المعنى في نظرية النّحو العربي: ١٨٨.

[٣] : لطيفة النجّار: منزلة المعنى في نظرية النّحو العربي:١٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الدّرس اللساني الحديث:

تستلزم الدراسة العلمية للظواهر والنّظريات على اختلاف مجالات اهتمامها، إرسال النّظر في تاريخها التطوري – إن صح التعبير – وتسلسل السّير فيها، فهذا إلى حد بعيد، يعين على فهم أسسها ومبرراتها، ويحمل على تبين موقعها من مثيلاتها من الأفكار التي سبقتها أو تلتها، وحتى تلك التي تزامنها وتتقاطع معها طردا أو عكسا (أي متفقة أو مفترقة) .

وعلى الرغم من أن حدود العلم كثيرا ما تكون غائمة، وهي بالتأكيد غير قاطعة، إلا أن الوقوف على أهم مناطق التحول وأشدّها تأثيرا، هو أمر مشروع بلا شك، وهذه المناطق – أعني التي يبرز فيها انعطاف الفكر أو تحوله – هي التي تعرف في العلوم وتنظيرها بالمدارس أو الاتجاهات.

وتنتمي الدراسة اللسانية إلى جملة العلوم التي سارت في مراحل تتباين زماناً ومكاناً وأثراً – وليس من همّة البحث في مجاله المحدد هذا – أن يتتبع الدراسات اللسانية تأريخاً وتفصيلاً، وإنما يكتفي من ذلك بما يسدد النّظر إلى سِياق الحال، في نشأته وتطوره عبر المدارس اللسانية المختلفة، ومن هنا فيمكننا الإشارة إلى أن اللسانيّات المعاصرة – باعتبار تصورها لوظيفة اللغات الطبيعية، وهو ما يعني البحث، يمكن أن تقسّم إلى مجموعتين اثنتين:

- نظريّات لسانيّة صوريّة
- ونظريّات لسانيّة وظيفيّة (أو تداوليّة)

تضم المجموعة الأولى جميع النّظريات اللسانية التي تعتبر اللغات الطبيعية أنساقاً مجرّدة، يمكن وصفها بمعزل عن وظيفتها التّواصليّة، في حين أن المجموعة الثانية تشمل النّظريات اللسانية التي تعتمد كأحد مبادئها المنهجيّة المبدأ الآتي: اللغات الطبيعية بنيات تحدد خصائصها (جزئياً على الأقل) ظروف استعمالها في إطار وظيفتها الأساسيّة، وظيفة التّواصل.[1]

[1] :أحمد المتوكّل، الوظائف التداولية في اللغة العربيّة: ٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الوقت نفسه الذي لا يمكننا فيه الجزم بانفصال تام بين المجموعتين، فإننا نستجمع القول في النّظريات بحسب تحركها قرباً من موضوع " سِياق الحال " وبمقدار ما هي اجتماعية تداوليّة تواصليّة في مقاربتها للغة..

ويقرر أحد الباحثين أن علم اللغة الحديث إنما ينظر إلى عملية الاتصال اللغوي على أنها الوظيفة الأساسيّة الكبرى للغات البشر، وقد لاحظوا أنها – أي عملية الاتصال – تتمثل في نقل الرسالة من مُرسل هو المتكلّم أو المتحدّث أو الباثّ، يرسلها إلى آخر مُستقبِل لها، وهو المتلقي أو المخاطَب أو السامع، من خلال قناة هي الهواء في حالة الاتصال الشفهي، وتسمى أيضا الوسط أو الناقل، وبشرط أن يكون طرفا الاتصال (المتكلّم والمتلقّي) مُتّفقين من قبل على نظام رمزي ويسمى أيضا الرامزة، ويتكوّن هذا النّظام من علامات لغويّة هي الألفاظ، وهي تتألف من عناصر لغوية هي الفونيمات (أي الوحدات الصوتية)، والمورفيمات (أي الوحدات الصرفيّة)، ويتضمن هذا النّظام بالإضافة إلى ذلك طائفة من القواعد المضبوطة، هي قواعد النّحو، تحكم هذه العلامات والعناصر وتنسّق بينها. والعلامات اللغوية أي الألفاظ كيان ذو وجهين: الدّال وهو الصورة السمعية أو الكتابية، والمدلول وهو التّصوُّر، وإذا استعملت هذه العلامات في جملة فهي تتيح بِدَالّها ومَدلولها إقامة عملية رجوع إلى العالم الخارجي من خلال سِياق الجُملة. وينشأ معنى أي كيان في نظام رمزي من علاقاته بالكيانات الأخرى، ومجموع هذه الكيانات ومدلولاتها تؤلف نظاما رمزيّا يستخدم للاتصال، أي تؤلف لغة.[١]

ويمكننا هنا التمثيل للنظريات اللسانية المنتمية إلى المجموعة الثانية بما يسمى بالبراغماتية، التي تمثل أحد التطورات الأخيرة لما كان يدعى (الدلالة التداوليّة)، والنّظريّة الوظيفية المقترحة في إطار مدرسة هارفارد الأمريكية، والنّظريّات الوظيفية الأوروبية التي نذكر منها خاصّة المدرسة النسقية، ومدرسة براغ، وأخيرا النّحو الوظيفي الذي اقترحه سيمون ديك في السنوات الأخيرة.[٢]

---

[١] :مصطفى حميدة : نظام الارتباط والربط في تركيب الجُملة العربيّة: ١٣-١٤.

[٢] : أحمد المتوكّل، الوظائف التداولية في اللغة العربيّة: ٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذن، فـــإلى ارتـــباط اللغة بمحيطها وأبعادها الثقافية والطبيعية، توجهت النّظريّة اللسانية في مسارها الذي نعنيه، يقول فان ديك في مؤلفه (النّص والسّياق) : إن النّظريّة اللسانية تهتم بأنساق اللغة الطبيعية، أعني تراكيبها المتحققة أو الممكنة التحقق، وبتطورها الـــتاريخي وبمختلف أنشطتها الثقافية ووظيفتها المجتمعية وأسسها المعرفية. وفي العادة إنما تصـــاغ هذه الأنساق من حيث هي أنساق صياغة واضحة من قواعد متواضع عليها، من شـــأنها أن تحـــدد نوع السلوك اللغوي كما يظهر هو ذاته في استعمال العبارة الكلامية اللفظية في كل موقف أو مقام تواصلي[١].

إن الـــنّظر إلى النّص وفق هذه الأنظار اللسانية يعني التفريق بين مستويين: سِياق البِنْـــية وهـــو التركيـــب الداخـــلي للنص، وموقف يحيط بالنص تتفاعل فيه مجموعة من المرتكـــزات والـــتوقعات والمعارف، وهذه البيئة الشاسعة تسمى سِياق الموقف[٢]. وينفي روبـــرت دي بوجـــراند إمكانية النّظر إلى النّص بالانقطاع إلى سِياق البِنْية فحسب، فهو يقـــول: "لا يمكن النّظر إلى النّص بزعم أنه مجرّد صورة مكونة من الوحدات الصرفية أو الرموز. إن النّص تجلّ لعمل إنساني ينوي به شخص أن ينتج نصاً ويوجّه السامعين به إلى أن يبنوا عليه علاقات من أنواع مختلفة"[٣]

وفـــيما سبق لا يخفى أن اللغة في المنظور اللساني الحديث، باتت تشكّل مشتركاً كـــبيرا بين مستخدميها، لا على مستوى البِنْية الداخلية فحسب، حيث القواعد المتواضع علـــيها الـــتي يشـــترك فيها أفراد جماعة لسانية معيّنة، ولكن كذلك من حيث أن اللغة اجتماعية الطابع، تتشكل من مواقف المتخاطبين وأحوالهم وثقافاتهم وما يحيط بهم من أبعاد أخرى متعددة..

ومـــن غايـــة عـــلم اللسان وهدفه أن يعيد تركيب البناء النّظري لنسق القواعد المخصوصـــة – عـــلى مستوى البِنْية الداخلية – هذا البناء الذي يتضمن ضروب التعميم وإكمـــال النموذج، يقتضي صياغة من أعلى مستويات مراتب التحليل الدلالي، وتكوين المقـــولات مـــن التراكيب النّحويّة وتنظيم عناصرها المكونة من القواعد والقيود الضابطة

---

[١] :فان ديك، النّص والسّياق، ١٧.

[٢] : روبرت دي بوجراند، النّص والخطاب والإجراء: ٩١.

[٣] : روبرت دي بوجراند، النّص والخطاب والإجراء: ٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والاحترازات الضرورية لوصف البِنْية المُجرّدة لعبارات لغة التخاطب والتداول واستعمال المـــتداولين لهـــا. وأحد أغراض النّحو التجريبية أن يصبح قادراً بل بإمكانه أن يعين على تحديـــد أي أنـــواع العبارات – تكون من جهة التواطؤ – جائزة مقبولة، وأيها لا يكون كذلك بالنسبة لمستعملي اللغة فيما تقصده الجماعة من كلام التخاطب.[١]

ويصـــرح فان ديك بأهمية حضور السّياق في التحليل الكلامي، بتأكيده على أن الجُملـــة أو العبارة قد يكون تعيّن لها القبول من حيث الصفة النّحويّة – بما في ذلك تحقق البِنْـــية الفونولوجـــيّة والصرفيّة والمورفولوجية والتركيبيّة – إلا أن " النّحو يقتضي أيضا تخصـــيص البِنْية المرتبطة بالأشكال الصورية وإن كان معنى العبارة المتلفظ بها، ليس على وجه الدقة جزءا من تركيب العبارات. وإنما يتحدد معنى العبارة باستعمال المتكلّم للغة"[٢]

إن تطـــور الدراسات اللسانية وصيرورتها نحو الوصول بها إلى الوظيفية أو التداولية هـــو تطـــور مـــن البداهة بمكان، حيث جاء ملبّياً لهدف الدراسات اللسانية وسعيها نحو الـــتعامل مـــع اللغة في تراكيبها المحدودة، والتي تنتج في الوقت نفسه عددا لا متناهيا من الأشـــكال اللغوية الجديدة والمتناسبة مع السّياقات والمواقف التي تستعمل فيها اللغة، " إن هـــدف الدراسة اللغوية ضمن هذا الاتجاه ينحصر في صياغة النماذج الشكليّة المعبّرة عن القدرات العقلية لمستعمل اللغة"[٣].

ونحن في حديثنا عن الدراسات اللسانية لا نبتعد عن مفهوم النّحو، وإنما نعنيه من طـــرف مـــا، فـــ" إذا تهيّأ لنا أن نحمل مفهوم النّحو على أوسع معانيه وأدقها من الناحية المنهجية، بإدراجنا المكون التداولي والمرجع الدلالي وشروط التأويل الناتجة عن معرفة العالم الدلالية، وكذلك علم السيمانطيقا الكلي، كنا حينئذ قادرين أن نفسر كثيراً من الخصائص العامة للخطاب من خلال النّحو ذاته" [٤]

وتأتي البراغماتية بوصفها طريقة في النّظر اللساني الحديث لتتماشى مع طبيعة اللغة وحاجاتهـــا الديناميكـــية الخاصّة، ولهذا فإن البحث فيها – أي البراغماتية – يشارك فيه

---

[١] : فان ديك: النّص والسّياق: ١٨.

[٢] : فان ديك: النّص والسّياق: ١٨.

[٣] :يحيى أحمد : الاتجاه الوظيفي ودوره في التحليل اللغة: ٦٩.

[٤] : فان ديك: النّص والسّياق: ٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دارســـون مختلفون، وتتلاقى فيه على وجه معيّن ميادين من المعرفة مختلفة أهمها علم اللغة الخـــالص والبلاغة والمنطق وفلسفة اللغة وكذلك علم الاجتماع وغيرها من العلوم المهتمة بالجزء الدلالي من اللغة [١].

والدارسون على الطريقة البراغماتية ينكبّون على الأشكال الدلالية مقابل انكباب البنـــيويين والـــنّحاة التولـــيديين عـــلى الأشكال الدالة، ويعتبرون المقام في مقابل اهتمام الدراســـات السابقة بالنّظام اللغوي، وينظرون في القول بعد أن كان النّظر اللغوي يبحث عـــن الجهـــاز المختفي وراء القول، ويتساءلون في علاقة اللغة بالكلام، وجدوى التفريق بينهما، بعد أن كان اللغويون جازمين في إبعادهم إنجاز الكلام عن الدراسة العلمية.[٢]

وتعـــد البراغماتية جزءا من الدراسات التي تشترك جميعها في دراسة التعامل داخل المؤسســـة اللغويـــة في إطار مقام اجتماعي عام، فليست اللغة مجرد وسيلة لنقل الأفكار ولوصـــف الأشياء، وإنما هي ميدان ننجز فيه أعمالا لا تنجز إلا في اللغة وباللغة.[٣]ويعتقد دي بوجراند أن اللسانيّات المبنية على طابع الممارسة ستكشف أن قواعد اللغة في جملتها متغيّرة طبقاً لمطالب المواقف الجارية، وبدلالات فعاليات النّص التي تسعى إلى إيجاد تأثيرات خاصّة[٤]. وهذا ما يعتقده أوستن قبلا، فهو في نظريته الموسومة بـــ(أفعال الكلام) يرى في القـــول نوعـــا خاصا من أنواع الفعل حسب المعنى الخاص للقول، وهذه النّظريّة هي ما يعدّونـــه نظرية للذرائعيّة (أو البراغماتية) الاجتماعية، وفيها يُتناول القول باعتباره فعلاً ضمن إطار القوانين والأعراف الاجتماعيّة.[٥]

وعـــلى العكس من أمثلة الكلام التي لها قوة فعليّة في سِياق ما، لو تناولنا الموقف الاجتماعي أو المقام بما هو موجّه للوحدات الكلاميّة مغنٍ عن مقاطع منها، فإننا نعني أن نوجه النّظر إلى الاتجاه الوظيفي، وهو مدرسة من مدارس الفكر اللساني المعاصر، وهو يعنى

---

[١] :محمد صلاح الدين شريف: تقديم عام للاتجاه البراغماتي: ٩٥. (ضمن أهم المدارس اللسانية).

[٢] :محمد صلاح الدين شريف: تقديم عام للاتجاه البراغماتي: ٩٥. (ضمن أهم المدارس اللسانية).

[٣] : محمد صلاح الدين شريف: تقديم عام للاتجاه البراغماتي: ١٠٣.

[٤] : روبرت دي بوجراند: النّص والخطاب والإجراء: ٩٣.

[٥] : جون ليونز: اللغة والمعنى والسّياق: ١٩٢-١٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بكيفية استخدام اللغة وبالقيمة الاتصالية لها، ويربط هذا الاتجاه بين النّظام اللغوي وكيفية أدائه للمعاني.[١] ويتمثل هذا الربط في ثلاثة مظاهر:

المظهـــر الأول: الخـــيارات المتعددة المتاحة للمتكلم والمتمثلة في الأبنية والتراكيب المختلفة الموجودة في لغته. إن كل تركيب يؤدي وظيفة مختلفة لأنه يمكن المتكلّم من تنظيم كتل المعلومات طبقًا لظروف الكلام.

المظهر الثاني: هو أن جذور اللغة تمتد إلى البنى الاجتماعية بكافة أشكالها. فلا يمكن فصـــل اللغة عن الثقافة: التّراث والعادات والتقاليد. إن الظواهر الاجتماعية التي يرتبط بها الفرد بحكم انتمائه إلى مجتمع ما تفرض عليه سلوكا لغويا معينا. ويظهر ذلك بوضوح في أساليب التخاطب التي ينتقيها الفرد في المواقف المختلفة.

المظهـــر الثالـــث: تضافر العناصر ، بمعنى أن عناصر اللغة مجتمعة تساهم في أداء الفكـــرة الـــتي يريد المتكلّم توصيلها. فلا يمكن أن يستقل عنصر أو مستوى لغوي بأداء الوظيفة.[٢]

وعلى غرار البراغماتية في اعتمادها على اللغة كأساس لممارسة الفعل على المتلقي، على أساس أن النص اللغوي في جملته إنما هو (نص في موقف)[٣]، يأتي الاتجاه الوظيفي العام بمـــدارسٍ مـــتعددة، يجمعها ضابط تصوري واحد تجاه طبيعة اللغة، فاللغة وسيلة اتصال اجتماعية يستعملها الفرد لأداء وظائف مختلفة وللتأثير على الآخرين.

وعـــلى خلاف التحويليين في صدورهم عن وجهة نظر ذات امتداد لديهم مُؤَدّاها أنّ الظواهر اللغويّة تنضبط، من حيث المبدأ، بشروط نحْويّة خالصة قابلة للتشكيل على نحو مُحْكَم، وأنّ العوامل غير النّحويّة ممّا يلابِس النّحو ويتداخل وإيّاه، كَمِثْل عقيدةِ المتحدّث إزاء العالم الذي يعيش فيه، والفروض القبليّة، وآثار موقف الخطاب، واستراتيجيات الحِسّ وهكذا، لا تلعب إلاّ أدوارًا فرعيّة في تشكيل المستويات المتفاوتة لأُصولية الجُملة، أو كونها مقبولة لدى أبناء اللغة.[4]

---

[١] : يحيى أحمد : الاتجاه الوظيفي ودوره في التحليل اللغة: ٧١.

[٢] : للاستزادة في هذا المعنى انظر:يحيى أحمد : الاتجاه الوظيفي ودوره في التحليل اللغة: ٧١-٧٢.

[٣] : صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ٩٨.

[٤] : نهاد الموسى ، نظرية النّحو العربي ، ص٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى خلاف التحويليين في اعتقادهم، على نطاق واسع، أن التفسير غير النّحويّ خطيئة لا يجوز لنا أن نُقارِفَها إلا أن تفشل التشكيلات النّحويّة المحكمة؛ وأنّ العوامل غير النّحويّة ممّا لا يمكن تشكيله بإحكام قليلة الأهمية في نظريّة النّحو.

فـــإن الوظيفيّين يجعلون وكدهم أن يُظْهِروا أنّ وجوهًا عريضة من الظواهر اللغوية تَحكُمها في الحقيقة من حيث المبدأ عوامل غير نَحْويّة، وأن ما يتبقى وراء ذلك، إذا اقتُصِر به على التحويلات والشروط الممكِن تشكيلها بإحكام، قليل الأهميّة جدّاً.[1]

وما يراه علماء اللغة أن أفضل رؤية للوظيفية أنها اتجاه معين في إطار البنائية ويميزها الاعتقاد بأن البِنْية الفونولوجية والنّحويّة والدلالية للغات تحددها الوظائف التي تؤديها في المجتمعات التي تعمل فيها، وأشهر من يمثل الوظيفية -بهذا المعنى- أعضاء مدرسة براغ التي تـــرجع أصولها إلى دائرة براغ اللغوية التي تأسست عام ١٩٢٦ وكانت ذات تأثير خاص في علم اللغة الأوربي في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية[٢].

إن تحليل مدرسة براغ للمعنى لم يتخذ منحى المنطق الوضعي أو المنحى التجريدي الذي يفصل المعنى عن الاستعمال اللغوي ، وإنما اتخذ منحى وظيفيا. وهذا واضح في أن ما سموه بالمحتوى الدلالي semantic content يرتبط من جانب بمستويات لغوية أخرى كالمستوى النّحوي والمستوى الأسلوبي ، ومن جانب آخر بحقائق العالم الخارجي ، بما في ذلك مشاعرنا تجاه هذا العالم. فهناك حقيقة مهمة حول عملية الاتصال اللغوي ينبغي أن ندركها ألا وهي أن المتكلّم حينما يوجه خطابه إلى المستمع فإنه لا يريد فقط أن ينقل إليه بعض الحقائق ، ولكنه يريد أيضا أن ينقل إليه مشاعره تجاه الحقائق. إن العبارات المنطوقة تكـــون دائما مغلفة بمشاعر الفرد. وذلك بحكم انتمائه إلى بيئة اجتماعية تموج فيها شتى المعطـــيات والمـــتغيرات. وقـــد فهم لغويو مدرسة براغ أن ربط محتوى الكلمة بالحقائق الخارجية يمثل وظيفة اللغة في المجتمع.[٣]

إن اللغة عند أتباع هذه المدرسة تستخدم كوسيلة تعبيرية تأثيرية. وهي ليست شيئا مجـــردا عـــن الواقع الذي توجد فيه، بل إن وظيفتها هي التفاعل مع هذا الواقع. والمنظور

---

[1] : لهاد الموسى ، نظرية النّحو العربي ، ص٨٣.

[٢] : حون ليونز ، اللغة وعلم اللغة ، ص٦٢.

[٣] : يحيى أحمد : الاتجاه الوظيفي ودوره في التحليل اللغة: ٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوظـــيفي للجملة ينظر إلى الجُملة على أنها تتكون من شقين: الأول يسمى المسند والثاني يسمى المسند إليه، ويأتي المسند في الغالب أولاً ثم يعقبه المسند إليه. هذا هو التّرتيب المتّبع حيـــنما يكـــون نسق الجُملة محايداً. والنسق المحايد هو التّرتيب المألوف لأجزاء الجُملة في الاستعمال العادي، أي الاستعمال الذي يراد به مجرّد الإخبار أو الإسناد. أما حينما يريد المتكلّم أن يجذب انتباه السامع إلى عنصر معين في الجُملة، أو أنه يريد التركيز على عنصر معـــيّن لأنـــه يمـــثل في نظره زبدة الحدث اللغوي، فإنه يلجأ عندئذ إلى خرق هذا النسق الطبـــيعي، وعـــلى هذا، فالمنظور الوظيفي للجملة هو أساس التحليل، وهو يعني ترتيب عناصر الجُملة بالنّظر إليها في ضوء السّياق الفعلي.[١]

وعلى ما تقدّم فإنه يبدو أن لغويي مدرسة براغ لم يقصدوا تقنين المظاهر الوظيفية للغـــة وحصرها في قواعد شاملة، إنما اهتموا بالكيفية التي تزوّد بها اللغة المتكلّم بعدد من الأساليب والطرائق التعبيرية استجابة للظروف والمواقف المختلفة وبيان الفروق بين أحدها والآخر.[٢]

ومـــما يظهر شدة التعالق بين اللغة ووظيفتها الاجتماعية، ما يذكر حول المدرسة الوظيفيّة الإنجليزية التي يتزعمها عالم اللغة الإنجليزي فيرث، من أن أفكارها نشأت في أول الأمـــر متأثرة بأفكار عالم الاجتماع مالينوفسكي، بل يذهب بعض المحدثين إلى أن فيرث اعـــتمد في بـــناء نظريته اللغوية على مفاهيم مالينوفسكي، ثم عمد من جهته إلى تطويرها والتوسّع بها.[٣]

ولما كان مالينوفسكي أستاذاً للأنثربولوجيا، فإن مقاربته للغة كانت من حيث هي إحـــدى تمظهـــرات المجتمع في سلوك أفراده، وعليه، فقد رأى أن معنى الجُملة يتحدد في السّياق المعين الذي ترد فيه. والسّياق الذي قصده مالينوفسكي هو البيئة الطبيعية أو الواقع الثقافي للمجتمع. ولأنه لم يكن لغويّا بالدرجة الأولى فلم يكن مالينوفسكي مهتما بصياغة نظرية لغويّة.

---

[١] : يحيى أحمد : الاتجاه الوظيفي ودوره في التحليل اللغة:٧٦-٧٧. وهذا الذي يذكره المؤلّف لا ينطبق تماماً على الجملة الاسمية في العربية، حيث المسند إليه هو الشق المقدّم فيها. والشاهد من الاقتباس ما يتعلّق بتغيير النسق لغاية المتكلم.

[٢] : أحمد قدّور: مبادئ اللسانيّات: ٢٤٥.

[٣] : للبحث حول هذا انظر: مصطفى لطفي: اللغة العربيّة في إطارها الاجتماعي: ٤٦-٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما فيرث فقد اقتبس من مالينوفسكي فكرة أهمية دراسة اللغة في إطار سِياق معين، فجـــاءت نظرية فيرث اللغوية مبنية على أساس ارتباط اللغة بالفرد والمجتمع. ولذلك فإن فكـــرة سِـــياق الحال – والتي يعزوها البعض في أساسها للأنثروبولوجي مالينوفسكي – أصـــبحت تعـــني عند فيرث دراسة اللغة كأداة اجتماعية، أي كأداة في المجتمع يستعملها الأفراد بقصد تحقيق أهداف وأغراض معينة[1].

لقد أكدت "وظيفية لندن" ... أن اللغة ظاهرة إنسانية وأنها أهم نشاط سيميائي عـــند الإنســـان، ومـــن هنا فإن كل نظرة تجزيئية لهذا النشاط يفقده طابعه الخاص وهو إنســـانيته، ويعـــزله عن باقي الأنشطة اليومية عند الإنسان. هذه النّظرة التجزيئية – التي يطـــبقها البنـــيويون الأمريكيون- في رأي فيرث نظرة ناقصة لا تمكن من إعطاء صورة صـــحيحة عن اللغة.[2]ولقد بات معروفاً لدى المتخصصين، إن الوظيفة الأساسيّة للألسنية عـــند فـــيرث هي بيان معنى الحدث اللغوي، فالمعنى عنده ليس العَلاقة المتبادلة بين اللفظ وصورة الشيء الذهنية، بل المعنى تحدده وظيفة الحدث اللغوي من خلال خضوعه للتحليل تدريجـــيًا عـــلى مستويات اللغة كافّة (الصوتية والصرفية والنّحويّة) في ظل سِياق الحال. وهكـــذا يـــتعامل فيرث مع سِياق الحال تعامله مع أي سِياق لغوي آخر، هذا إن لم يكن السّـــياق هـــو المظلة التي تحتضن هذه النّظم وتتحكم فيها. وهو في نظره أداة من أدوات البحث اللغوي بالطريقة نفسها التي يستخدم بها النّظام النّحوي مثلا، وهو لا يتصوّر علما للدلالة دون الإحاطة بالسّياق؛ حيث يقول: إن التّصوُّر الأساسي في علم الدلالة يقوم على سِياق الحال![3]

وفي السّياق الوظيفي نفسه تندرج المدرسة الفرنسية التي يعدّ أندريه مارتينيه علمها الأول[4]، وقـــد حـــذت هذه المدرسة حذو مدرسة براغ في نظرتها الوظيفيّة للغة، فمفهوم الوظيفـــيّة عند مارتينيه يرتبط باختيار المتكلّم أدواته التعبيرية اختيارا واعيا، مما يكفل أن

---

[1] يحيى أحمد ، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة ، ص٨٢. بتصرف.

[2] مصطفى غلفان: نحو علاقة جديدة بين اللسانيّات ومناهج تحليل النّص الأدبي: ٨٤. بتصرف.

[3] جون ليونز ، ما معنى نظرية المعنى عند فيرث: ٦٠ –٦١.

[4] : انظر نهاد الموسى، نظرية النّحو العربي: ٨٣، وانظر كذلك: عطا موسى، مناهج الدّرس النّحوي في العالم العربي في القرن العشرين: ٣٠٦_٣٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تـــتحدد وظـــيفة أي جزء من الكلام بالشحنة الإخبارية التي يكون في مقدور المتكلّم أن يحملها ذلك الجزء، وبذلك تكون الوظيفة القيمة التمييزيّة من الناحية الدلالية العامّة.[1]

ويترتـــب عـــلى هذا التّصوُّر للوظيفة أن يرتبط مفهومها بمدى قدرة المتكلّم على الـــتوقع، مما يستلزم أن تكون الشحنة الإخبارية ضعيفة إذا كان توقع السامع كبيراً، وأن تكـــون قويّة إذا كان توقعه ضعيفا، وبذلك وسّع مارتينيه مفهوم الوظيفة وجعلها محكومة باعتـــبارات تتصل بوظيفة اللغة، وهي – كما هو متعارف – ظاهرة من ظواهر الاتصال والتخاطب.[2]

في البنْية والمكوِّنات:

تخلص النّظريات الوظيفية، والمدارس اللسانية المهتمة بالوجهة الاجتماعية للغة في تحليـــلها، إلى أن اللغة ترتبط بمحيطها ارتباطا وثيقاً يصعب تلمّس أبعادها وفهم مقاصدها بالانقطاع عنه، بل إن النّص اللغوي – أي نص – لا يتكامل إلا بتعالقه مع سِياقه، فليس النّص مجموعة من الجمل المتتابعة، أو الوحدات المُجرّدة، بل هو توليفة من الجمل المرتبطة بمقامات معيّنة.[3]وإن الاكتفاء باللغوي في مقاربة النّصوص هو انغلاق يحول دون الوصول إلى المقاصد.[4]، بل إننا قبل التفكير في قضية تحليل اللغة ونصوصها، نتبين أن بناء الجُملة في أساسه يتطلب أن يقوم المتكلّم بتعليق دلالات الألفاظ في عقله أولا، وترتيبها بحسب معاني الـــنّحو، وفقا لقدرته اللغوية، ومن ثمّ ينتج عن هذا نظمها وترتبها في النطق، ووفق قدرة المـــتكلّم هـــذه تتفاوت صحة التعليق أو فساده، والتي يترتب عليها من بعد وصف النّظم بـــالجودة أو الـــرداءة. وقـــد سبق أن تبين ما للنظم من معنى يتكون من اندماج المقاصد الإبلاغية والتّواصلية مع الوظائف أو المعاني النّحويّة.[5]

---

[1] :عبد السلام المسدي، اللسانيّات وأسسها المعرفيّة: ١٥١.

[2] :عبد السلام المسدي، اللسانيّات وأسسها المعرفيّة: ١٥١.

[3] : جون ليونز، اللغة والمعنى والسّياق، ٢١٨.

[4] : انظر محمد مفتاح، مجهول البيان: ١١٠.

[5] : انظر مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجُملة العربيّة، ١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن المعنى – بحسب فيرث – هو مجموع معقّد من العلاقات السّياقيّة، والسّياق هو مصطلح يقصد به من جهة: جوار الكلمات في التلاصق الركني الذي للجمل في الملفوظ، أي مـــا يسبقها وما يلحقها من مفردات، وعادة يعتبر العامل النّحوي في تركيب الكلام مظهراً سِياقياً.

ومـــن جهة ثانية: يقصد مجموع العوامل والظروف الاجتماعية التي تحيط الموقف الكلامـــي.[١] وقد أكد فيرث على التوازي بين السّياقات الداخلية والشكليّة للقواعد وبين السّـــياقات الخارجية للموقف، وعليه فالمعنى عنده مجموع العَلاقة بين اللغة المُجرّدة وعالم التجربة[٢]، ويتوصل إليه بتحليل الملفوظ من خلال إظهار سِياقية الوقائع.[٣]

إذن بـــات ممـــا لا يخالطه شك أن استبعاد أثر السّياق الاجتماعي على اللغة يجعل الكلام أمراً يكاد يكون مستحيلاً، لأن الرسائل المنطوقة تفصل خصيصاً حسب احتياجات المـــتلقّين ولهذا فإن المتحدث يراعي أن يلائم وينسق بمهارة شديدة بين خطابه ومتطلبات السّياق أو الموقف[٤]، ولهذا فإن اللسانيّات خضعت في تطورها إلى هذه السنة في الصيْرورة، فبعد أن حاول البنيويون والتحويليون معرفة نظام اللغة وعلاقة المفردات، أي دراسة البِنْية اللغويـــة مستقلة، جاء بعدهم فئة أخرى من علماء اللغة يصنفون بوصفهم أصحاب علم اللغـــة الاجتماعي Sociolinguistics ، ليتنبهوا بدورهم لما للغة من صلة وتأثر مع محيطها الخارجي، ولينهضوا بالصعوبات الكائنة في منهج التحليل اللغوي المعتبرة للسِياق أو لمقام الكلام.[٥]

هـــذا التوجّه في النّظر اللساني أصبح مما يشكل مثل دورة نشاط زاهية في مناهج التحليل اللغوي، والتي تدرج في سِياق منهجٍ في التحليل الوظيفي، والذي – كما سبقت الإشـــارة – يلابـــس حقـــولا مـــتعددة منها الوظيفية وعلم اللغة الاجتماعي والذرائعية (الـــبراغماتية)، وهي التي يُطلق عليها مناهج التوسيع[٦]، وهذه التسمية جاءتها لانتظامها "

---

[١] : عدنان بن ذريل، اللغة والدلالة: ١٦٠.

[٢] : ر.هـــ. روبنز، موجز تاريخ علم اللغة،٣٤٩.

[٣] : عدنان بن ذريل، اللغة والدلالة، ١٦٦.

[٤] : هدسون، علم اللغة الاجتماعي، ٢٥، وانظر أيضا ٢٣٤.

[٥] : انظر حول هذا حلمي خليل، مقدمة لدراسة اللغة، ٣١٩.

[٦] : انظر: نهاد الموسى، نظرية النّحو العربي، ٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في محور واحد مشترك هو أنها "توسّع" في التحليل إلى ما وراء حدود النّظر اللغوي الذاتي الخالص، وتعوّل على عناصر إضافية ومتغيرات خارجيّة تلابس المادة اللغوية الخالصة"[١].

إن معالجة العَلاقة بين القول والمقام تسمح لنا بأن نقول وبكل تأكيد أن الجوانب اللفظية والجوانب غير اللفظية تكون حاضرة في كل تواصل بين الأفراد، وما هو غير لفظي يتداخل باستمرار مع ما هو لفظي مما يجعل السلوك اللغوي سلوكا معقّدا، وفيه تظهر العناصر غير اللغوية أو الخارجة عن اللغة وكأنها عناصر أساسية في التواصل لأنها تقدّم للمتحاورين معلومات إضافية لا تقل أهمية عن المحتوى اللفظي للخطاب نفسه.[٢]

ويلخص أحمد المتوكل – أحد أعلام النّحو الوظيفي في الدّرس اللساني المعاصر – المبادئ المنهجيّة الأساسيّة المعتمدة في النّحو الوظيفي فيما يلي:

١- وظيفة اللغات الطبيعية الأساسيّة هي وظيفة التّواصل.

٢- موضوع الدّرس اللساني هو وصف القدرة التّواصليّة للمتكلم –المخاطَب.

٣- النّحو الوظيفي نظرية للتركيب والدلالة منظوراً إليهما من وجهة نظر تداوليّة.

٤- يجب أن يسعى الوصف اللغوي الطامح إلى الكفاية إلى تحقيق أنواع ثلاثة من الكفاية:

أ. النفسية ب. التداولية ج. النمطيّة[٣]

وبناء على المبادئ السابقة للنحو الوظيفي، ولتشكل النّظريّة وفق أنساق تتخذ منظورات محددة ومغايرة للنسق المطّرِد في اللسانيّات قبلاً، فإنها كذلك نظرت إلى الوظائف أو المعاني النّحويّة، نظرتها الخاصّة التي تخدم أسسها، حتى إنها جاءت بمصطلحاتها وتسمياتها الخاصّة لأبواب موجودة أصلا في البناء النّحوي القديم، فهم يقسمون الوظائف في النّحو الوظيفي على قسمين: وظائف تركيبية، وأخرى تداوليّة. والأول منها ينتمي إليه وظيفتا الفاعل والمفعول، بينما ينتمي إلى

---

[١] : لهاد الموسى، نظرية النّحو العربي، ٨١ (الهامش) .

[٢] : مصطفى غلفان، الإشاريات والمقام التواصلي، ٨٧-٨٨.

[٣] : للتوسع حول هذا انظر: أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربيّة الوظيفي، ٩-١٠. وانظر كذلك للمؤلف نفسه: المنهج الوظيفي، ٢١، ضمن قضايا المنهج في اللغة والأدب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القسم الثاني وظائف المبتدأ والمحور والبؤرة والذيل والمنادى. وهذا القسم يعنى بالنّظر إلى المقام حسب شروطه المعينة.[١] أي أنه يُعنى باللغة بحسب دورها التداولي والتخاطبي في سياقات المحادثة المختلفة.

ويرى النّحو الوظيفي أن الحالات الإعرابية تسند إلى مكوّنات الجُملة بمقتضى وظيفتها الدلالية أو وظيفتها التركيبية أو وظيفتها التداولية، وتتفاعل الوظائف الثلاث في تحديد الحالات الإعرابية بالشكل الآتي:

- إذا كان المكون حاملاً لوظيفة دلالية فقط تسند إليه الحالة الإعرابية (النّصب) أو الحالة الإعرابية (الجر) إذا كان مسبوقا بحرف جر بمقتضى وظيفته الدلالية نفسها.
- إذا كان المكوّن حاملاً لوظيفة تركيبية بالإضافة إلى وظيفته الدلالية تسند إليه الحالة الإعرابية (الرّفع) إذا كان فاعلاً، أو الحالة الإعرابية (النّصب) إذا كان مفعولا بمقتضى وظيفته التركيبية، بمعنى أن الحالة الإعرابية التي تقتضيها الوظيفة التركيبية تخفي الحالة الإعرابية التي تستوجبها الوظيفة الدلالية.[٢]

ولا يسعى الفصل للاستطراد في مقولات النّحو الوظيفي، بيد أنه يحسن بيان فرقٍ بدا ملحّا في هذا المقام، ذاك أن التفكير اللساني العربي القديم مختلف تماماً عن التفكير اللساني المعاصر، وذلك أن اللسانيين المعاصرين في معظمهم ينطلقون من الكل (أو المركب) إلى الجزء (أو المفرد)، أما العرب القدامى فكانوا يعتبرون أن الاتجاه المعاكس هو الأصح.[٣]

وليس ذكرنا لاختلاف المنهجين من عنايته المفاضلة بينهما، بل هو محاولة قراءة هذه الأعمال بُغْية توصيفها وتصنيفها، وعندما يذهب بنا القول إلى ذكر خلو الأعمال اللسانية القديمة من النّظريّة، بمحدداتها الصارمة، وضوابطها المقيدة، لا يعني انتقاص قدر العمل اللغوي العربي القديم، بل الإبانة عن أن قضية التنظير لم تكن هاجسهم الشاغل، لذلك لم يتطرف بهم النّظر إلى محاولة استجلاء نظرة كلية للأشياء، فجاء عملهم بالتالي مهتماً بالأجزاء أو الوحدات المكوِّنة، أكثر من

---

[١] : أحمد المتوكل، المنهج الوظيفي، ٢٣.

[٢] : أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربيّة الوظيفي، ١٨.

[٣] : بوجمعة الأخضر، التفكير اللساني العربي القديم (تساؤلات حول إعادة القراءة)، ٣٦، ضمن قضايا المنهج في اللغة والأدب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اهـــتمامهم بالكليات والمباني المكوَّنة، بعكس ما هو حاصل في اللسانيّات الحديثة التي تستشرف الأبنية في كليّاتها، والأنظمة في تكاملاتها، ثم تنفذ منها إلى مكوناتها وأجزائها، وهذا سبيل من يسعى إلى النّظريّة الكلية والتقعيد المتكامل.

وعلى الرغم مما للكلام السابق من تحقق في جانب كبير منه، ومحاولته عدم مجافاة الصواب في قراءته للنظرين قديمهما والحديث، فإن ما نود التأكيد عليه هو أن الإشـــارات الملحّة في كتب النّحو حول المسألة الواحدة، والتمثيل المتكرر على القضية نفسها، ينبئ ولو من طرف خفي على أن فقهاً عميقا يملأ أولئك النّحاة في مقاربـــتهم لعملهم، وأن شيئا من النّظر المشترك الذي بات له تسميات مختلفة في المـــدارس والنّظريات المحدثة، أن شيئا من هذا لم يُحرم منه اللغوي القديم في فكره وحدسه في تصنيفه وتقعيده.

وينشـــعب القول السابق ليُستدل عليه بالأمثلة المتكاثرة، إلا إن موضوع الفصـــل –وهـــذا مقامه – الإشارة إلى سِياق الحال بما هو أصل في عمل النّحاة العـــرب، ما كان منهم من العناية به عناية تضبط لهم مسائلهم كما هو الشأن في العصر الحديث، في مجموعة المدارس التي رعت هذا الأصل محدداً لإقامة نظريتها في تحليل اللغة.

ولســـنا نـــود أن نقول مكروراً في ختام هذا الفصل، بل هذه لمحة عجلى لإقامـــة صورةٍ مقارِنة – لا مفاضِلة – بين مكونات سِياق الحال وبنيته في النّظر اللســـاني الحديـــث بما ضُبِط وقُعِّد له، وبين ما هو كائن في حدس بعض النّحاة العـــرب القدمـــاء، ومتعيّن في بصائرهم، بما لم يسموا له، أو يعنونوا، بل جاء في أحكامهم متى استدعى المثال، أو روعي الشاهد.

فأمـــا سِـــياق الحال بما هو مستقرٌ في لسانيات المحدثين فيتكون من هذه العناصر المكونة للحال الكلامية[1]، وهي كالآتي:

---

[1] : محمود السعران، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، ٣١٠-٣١٢. ولا تفترق هذه الأسس مما هي عليه في أعمال اللغويين المحدثين الآخرين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١- شخصية المتكلّم والسامع وتكوينهما الثقافي، وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلّم والسامع – إن وجدوا – وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي، ودورهم أيقتصر على الشهود أم يشاركون من آن لآن بالكلام، والنّصوص الكلامية التي تصدر عنهم.

٢- العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العَلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي كحالة الجو إن كان لها دخل وكالوضع السياسي، وكمكان الكلام..الخ، وكل ما يطرأ أثناء الكلام ممن يشهد الموقف الكلامي من انفعال أو أي ضرب من ضروب الاستجابة، وكل ما يتعلق بالموقف الكلامي أياً كانت درجة تعلقه.

٣- أثر النّص الكلامي في المشتركين كالاقتناع أو الألم أو الإغراء أو الضحك..الخ، وهكذا يتضح أن من أهم خصائص سِياق الحال إبراز الدور الاجتماعي الذي يقوم به المتكلّم وسائر المشتركين في الموقف الكلامي.

٤- وإن نظرية اللغة التي تقوم على التّصوُّر الخاص بسِياق الحال تشمل جميع أنواع الوظائف الكلامية بمعنى أنها بهذا التّصوُّر تستطيع أن تدرس وتفسر جميع أنواع الوظائف الكلامية، وليست مقصورة كأكثر النّظريات القديمة على إبراز نوع أو أكثر ليس غير من أنواع الوظائف الكلامية.

وأما سِياق الحال عند القدامى، بما تعنيه هذه الأسس السالفة فنمثل لها من عند نحوي واحد – نعني أبا الفتح ابن جني – الذي حقق من الفرادة في هذا النّظر، ما دفع بعض المحدثين إلى القول بأنه قد سبق فيرث إلى نظرية السّياق الاجتماعي، وإن جاءت رؤيته مبعثرة تفتقر إلى التنظيم في إطار شامل مكتمل.[١]

---

[١] : عبد الكرّيم مجاهد، الدلالة اللغوية عند العرب، ١٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بل إلى أكثر من ذلك، فإن الدكتور عبده الراجحي يقرر أن أهم موضوع عـــرض له أبو الفتح مما يتصل بدراسة المعنى هو ذلك الذي يطلق عليه المحدثون (سِياق الحال).[١]

ويســـعى الفصل – في تتمته – أن يقف إلى بعض الأمثلة التي ساقها ابن جـــني، وكان فيها شديد الحرص على استحضار سِياق الكلام، والظروف المحيطة بـــالحدث الخطـــابي، وكأنـــه يعي بشكل وافٍ ما تنص عليه نظرية سِياق الحال الحديـــثة، وما تنص عليه من أسس ومبادئ، ومن هذه الأمثلة: "ومثل له بقولهم رفع عقيرته إذا رفع صوته. قال له أبو بكر: فلو ذهبنا نشتق لقولهم (ع ق ر) من معـــنى الصـــوت لبعد الأمر جدا، وإنما هو أن رجلا قطعت إحدى رجليه فرفعها ووضـــعها على الأخرى، ثم نادى وصرخ بأعلى صوته، فقال الناس: رفع عقيرته، أي رجله المعقورة. قال أبو بكر: فقال أبو إسحاق: لست أدفع هذا"[٢] .

إن ابن جني هنا يستحضر كلاما عن شيوخٍ له، تنبهوا إلى التطور الحاصل عـــلى المعـــنى المعجمي للكلمات، والتطوّر الدلالي الذي يلحقها، إما باتساع أو تضييق أو كسو دلالة جديدة، وهذا الذي يعرفه علماء اللغة في أبواب الاشتقاق، وهذا عند ملاحظتهم أن العقيرة لفظة تُباعد جدا الألفاظ المتعلقة بالصوت في أصل الوضع، لهذا ذهبت بهم الفطنة إلى استحضار المشهد الكلامي الذي استعملت فيه تلـــك الكـــلمة بدلالتها الجديدة وقالوا مبررين عملهم : "لا يؤمن أن تكون هذه الألفـــاظ المـــنقولة إلينا قد كانت لها أسباب لم نشاهدها و لم ندر ما حديثها"[٣]، ويستدلون لتقوية موقفهم بأن سيبويه نفسه كان له من الاستدلال بالشاهد الحالي مـــا يصرّف به وجوه الكلام، "ولذلك قال سيبويه في نحو من هذا: أو لأن الأول وصـــل إلـــيه عـــلم لم يصل إلى الآخر، يعنى ما نحن عليه من مشاهدة الأحوال والأوائل"[٤].

---

[١] : عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربيّة، ١٦٦.

[٢] : ابن جنّي، الخصائص، ٢٤٨/١.

[٣] : ابن جنّي، الخصائص، ٢٤٨/١.

[٤] : ابن جنّي، الخصائص، ٢٤٨/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولـــيس حضور المشهد الكلامي بأكمله مما يعوّل عليه أبو الفتح في تحليله اللغـــوي، بل قد يكتفي أحيانا باستنطاق هيئة المتكلّمين ووجوههم، لتفسير نيتهم وفهـــم مقاصدهم، ويتعجب كم لهذه الإشارات الشخصيّة من دلالة ترفد القول معان لا تكتمل له دون استحضارها، فنسمعه يقول: "فليت شعري إذا شاهد أبو عمـــرو وابن أبي إسحاق ويونس وعيسى بن عمر والخليل وسيبويه وأبو الحسن وأبـــو زيـــد وخلف الأحمر والأصمعي ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين وجـــوهَ العرب فيما تتعاطاه من كلامها وتقصد له من أغراضها، ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور مالا تؤديه الحكايات ولا تضبطه الروايات؟! فتضطر إلى قصود العرب وغوامض ما في أنفسها حتى لو حلف منهم حالف على غرض دلته عليه إشارة لا عبارة لكان عند نفسه وعند جميع من يحضر حاله صادقا فيه" [١].

وقـــد ذُكـــر سابقا – في هذا الفصل- حكايته التي يرويها عن تلك المرأة المبتلاة بزوج متقاعس، وتعليقه على قول الشاعر:

تقول وصكّت وجهها بيمينها أبعلي هذا بالرحى المتقاعس[٢]

وتـــبين تعليقه على هذا بقوله: "ولو شاهدتها لكنت بها أعرف، ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين"[٣].

إن ابن جنّي في خصائصه يومئ بما يشبه النّظريّة المتكاملة المعتنية بالمقام الكلامي، أو الحـــال المشاهدة في التحليل اللغوي، فيحكي عن الإشارة أبلغ من العبارة، ويحكي عن كـــلام الوجه والجسد الذي لا يتحصل في المنطوق، ولا يدركه إلا المعاين، "وإذا جاز أن نسمي الرأي والاعتقاد قولا وإن لم يكن صوتا؛ كانت تسمية ما هو أصوات قولا أجدر بالجواز، ألا ترى أن الطير لها هدير والحوض له غطيط... فأما قوله:

وقالت له العينان سمعا وطاعة

فإنه وإن لم يكن منهما صوت فإن الحال آذنت بأن لو كان لهما جارحة نطق لقالتا سمعا وطاعـــة "[١]، ويتكلم باستفاضة عن تأدية الحضور معان إضافية تبين المراد بالكلام المجتزأ،

---

[١] : ابن جنّي، الخصائص، ٢٤٨/١.

[٢] : انظر هذا البحث ص ـــ، وابن جنّي، الخصائص، ٢٤٥/١.

[٣] : ابن جنّي، الخصائص، ٢٤٦/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتسـمح في حذف أجزائه أو السكوت عن تتمته، كما يهتم بالتفريق بين مستويات أداء الكلام واختلافها تبعاً للأطراف التي تتبادل فعل الكلام، فليس خطاب الملوك مثلا يوازي خطـاب العامـة، يقول في شيء من هذا: "وذلك أن أصغر الناس قدرا قد يخاطب أكبر الملـوك محـلا بالكاف من غير احتشام منه ولا إنكار عليه، وذلك نحو قول التابع الصغير للسـيد الخطـير: قد خاطبت ذلك الرجل، واشتريت تينك الفرسين، ونظرت إلى ذينك الغلامـين. فيخاطـب الصـاحب الأكبر بالكاف وليس الكلام شعرا، فتحتمل له جرأة الخطـاب فـيه، كقوله: لقينا بك الأسد، وسألنا منك البحر، وأنت السيد القادر، ونحو ذلك. وعلة جواز ذلك عندي أنه إنما لم تخاطب الملوك بأسمائها إعظاما لها، إذ كان الاسم دلـيل المعنى وجاريا في أكثر الاستعمال مجراه، حتى دعا ذاك قوما إلى أن زعموا أن الاسم هو المسمى. فلما أرادوا إعظام الملوك وإكبارهم تجافوا وتجانفوا عن ابتذال أسمائهم التي هي شـواهدهم وأدلـة عليهم إلى الكناية بلفظ الغيبة، فقالوا: إن رأى الملك أدام الله علوه، ونسأله حرس الله ملكه، ونحو ذلك. وتحاموا: إن رأيت، و نحن نسألك، لما ذكرنا."[٢]

---

[١] : ابن جنّي الخصائص، ٢٣/١.

[٢] : ابن جنّي، الخصائص، ١٨٨/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث:

الجواز النّحوي وعلاقته بسياق الحال

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مدخل: حول سِياق الحال بوصفه أصلا في عمل النّحاة

تـــبين في الفصل الأول من هذه الدراسة ما يكون في البِنْية الجملية في النّحو العربي من وجوه متعددة تخرج على الأصل المطّرِد لهذه الجُملة، وهذا يدل دلالة قاطعة على سعة الجُملـــة العربيّة ومرونتها التي تسمح بتقبل الأحوال المختلفة لمتعاطي اللغة بما يكفل أوجهًا تعبيرية لا نهائية تغطّي حاجاته القوليّة والتّواصلية.

"والإبـــداع الـــنّحوي – كمـــا تبين – يربط بين النّظام الثابت والأداء المتغير"[١]، ويتمـــثل هذا الأداء في صور النّظم المتعددة التي ذكرناها ثمة، من حذف وتغيير رتبة أو ما سواها..

ثم عرّج الفصل الثاني على أحد أبرز الأصول التي تحتكم إليها تلك الوجوه الجائزة في نحو العربيّة، وهو ما اصطلح على تسميته " سِياق الحال "، فهذا السّياق مع ما ينتظمه مـــن أحـــوال المتكلّم وأحوال المخاطَب وأحوال الموقف الخارجي الذي يكتنف الحدث الكلامي، كان هذا السّياق مرجعا مُتَعاوَرًا لحظه اللغويون منذ سيبويه وحتى لغويي العصر الحديث، وإليه كانت تُردّ التراكيب المدروسة للحكم عليها، ما يجوز منها، وما لا يجوز.

وفي ذلك الفصل تبيّن بجلاء ما كان من اللسانيّات الاجتماعية في سعيها " إلى أن تمد في التحليل اللساني بعداً يتجاوز المدى الذي بلغه علم اللسان الحديث، ذلك أن منهج البحث في علم اللسان الحديث منهج داخلي يعتمد في تفسير المتغيّرات اللغوية على ظواهر لغوية محضة، ويقوم على قواعد لغوية ذاتية موضوعية.[٢]

وإن كان الفصل الثاني قد وقف – عابراً – إلى تراث الدّرس النّحوي، مؤكدا أن لَحْـــظَ السّياق المقامي، أو سِياق الحال، كان "أصلاً مستأنسا لديهم باطّراد مستشعراً في تحلـــيلاتهم"[٣]فإن هذا الفصل يُعنى تحديداً بتحقيق القول في " تنبُّه النّحويين إلى دور السّياق أو الحال المشاهدة في مواطن الجواز النّحوي"[٤].

---

[١] : محمد حماسة عبد اللطيف: النّحو والدلالة ٢٨.

[٢] : نهاد الموسى : الأعراف ١٤٦.

[٣] : نهاد الموسى، الأعراف: ١٥٠.

[٤] : نهاد الموسى: قضية التحول إلى الفصحى ٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويذهب القول ببعض علماء العربيّة المتأخّرين إلى أن يتداولوا أمر وضع النّحو ويردّوه لأمر يتعلق بطرق العرب في كلامها، فإن العرب وإن اطّردت سلائقهم في الأعم الأغلب على وجه هو الأكثر شيوعاً، فإن هذا الأغلب يكون لابد من خروج عليه وخرق له، ما استهواهم شيء من القول على وجه لا يعنيهم إن خالف مطردا، أو شذ في قياس، ولذلك دخل النّحو كلامهم ليضبط له أصولا، ويحفظ له قوانين تُعرّف الأجود والأمثل في بناء كلامهم، ويمثل لهذا الكلام السيوطي في المزهر، في باب يسمه بـ" معرفة أغلاط العرب" يقول عنه:

"عقد له ابن جنّي باباً في كتابه الخصائص، قال فيه: كان أبو علي يروي وجه ذلك ويقول: إنما دخل هذا النّحو كلامهم، لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها ولا قوانين يستعصمون بها. وإنما هجم بهم طباعهم على ما ينطقون به، فربما استهواهم الشيء فزاغوا به عن القصد."[١]

وهذه اللحظات من الزوغ عن الأصل، واستهواء الخروج عليه ينتج في كثير من الوقت أحكام الجواز التي نحن بصدد معالجتها في سِياقات قولها.

ولعل لحظ السّياق هنا ليس لتبرير الخروج على الأصل، وإنما لتحرّي رد تلك الخروجات إلى بنى عميقة متكوّنة للغة المقعّد لها أصلا، وهذا مما يبعث إلى القول بالتأويل النّحوي، وهو شكل من المعيارية في التعامل مع اللغة، إلا إنه ليس مما يُعاب عليه الدّرس اللغوي، بقدر ما هي نوع من التوسل بالكلام للتوصل إلى اللغة الكامنة في عقول أبنائها، والتي لا تظهر إلا من خلال عملية تجلي الكلام، وخروجه إلى الألسنة ولو بصور متفاوتة بتفاوت أولئك الناطقين بها.

وهذا التأويل والردّ إلى الأصل مما ينبئ بكون اللغة في حقيقتها تملكها الجماعة في ذاكراتها الجمعية، وليس للفرد منها مستقلاً إلا ما تمنحه إياه قدرته على الموافقة بين معاني النّحو ووظائفه وبين مقاصده التي تتجدد في المواقف المتباينة ويشاركه فيها المستمع أو من يحضر موقف الكلام أو من يكون مقصودا بلفظ أو لحظ.

---

[١] : السيوطي، المزهر في علوم اللغة، ٤٩٤/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقول باجتماعية اللغة يعود إلى أبعد مما دوّن في اللسانيات الحديثة من ابتدائه مع دي سوسـيير، فالخلـيل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، حين سئل عن مصدر علل النّحو التي يتخذها النّحاة لتفسير الظواهر اللغوية، قال: " إن العرب نطقت على سجيّتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها وقام في عقولها علله، وإن لم ينقل ذلك عنها"[١]

إن هذه الرواية – وإن اقتطع هنا جزء يسير منها لدلالته – يمكن أن نستنبط منها بعـض الحقـائق، فاللغويون والنّحاة القدامى أدركوا أن اللغة بناء محكم، وهي بهذا نظامٌ تمـتلكه الجماعة، كما أن القدماء من النّحاة وعوا أن تعليلاتهم وتأويلاتهم مجرّد اجتهادات قد تقارب الحقيقة أو تفترق عنها[٢]، والحقيقة هي مقاصد أبناء اللغة التي يضمرونها في أثناء أدائهم لكلامهم ولا يمكن القبض عليها، وإنما يتوسّل بسِياقاتها للاستدلال عليها.

وهـذا الأداء للكـلام المتجوّز من أبناء اللغة، هو ما يحاول النّحاة إلحاقه بالتأويل والـتقدير بما استقرّ لديهم من بنية أساسية للغة، وإن كانت مواطن الجواز النّحوي تتعدد وتتـباين بحسـب ما يمليه سِياق الحال – مع الاعتبارات المجوّزة الأخرى – فإنها كذلك تخـتلف باختلاف عناصر السّياق بين متكلم ومخاطب ومحيط عام بالحدث الكلامي، وفي هـذا يتضـح مـا للنصوص من وجود اجتماعي ملموس، لا تتراءى في مضامين النّص فحسـب، بـل في استراتيجيات المشاركين أيضاً[٣]، وتكشف اللسانيّات المبنية على طابع الممارسة عن أن قواعد اللغة في جملتها متغيّرة طبقا لمطالب المواقف الجارية.[٤]

وعـلى هـذا فالـنّظم يكمن في المعاني الناتجة عن العلاقات النّحويّة، وفي المعاني الإضـافية التي يستخرجها المتلقي بجهد عقلي ونظر ثاقب وروية، إنه يكمن باختصار في تقـابل المعنى الذي قصد إليه المتكلّم، والمعنى الذي فسره المتلقي، أو في تسخير التشكيل اللغـوي في كفـاءة تفسـيرية (لدى المخاطَب) للوصول إلى الكفاءة الإبداعية (لدى المتكلّم).[٥]

---

[١] : السيوطي، الاقتراح في علم النحو،

[٢] : نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ١٨٥-١٨٧.

[٣] :فولفجانغ هاينه من، مدخل إلى علم اللغة النّصي: ١٠

[٤] :روبرت دي بوجراند : النّص والخطاب والإجراء ٩٣.

[٥] : سعيد حسن بحيري: دراسات لغوية تطبيقية ١٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفـــيما يلي من هذا الفصل نتوقف لتفسير ذلك. فنبتدئ بالباث، أو المتكلّم الذي يبتدئ العملية الكلامية، ونلحظه في التّراث النّحوي العربي بوصفه مجوِّزاً للأحكام النّحويّة في الـــنّظم والإعراب، ثم نكرر الشأن نفسه لدى كل من المتلقي مجوّزاً ، والمحيط الخارجي كذلك.

أولا : المتكلّم مجوِّزاً:

أ: في النّظم:

يقول أحد الباحثين في العصر الحديث: " إن المتكلّم والسامع هما العاملُ المؤثر في كل ما يتعلق بالمعنى، وإن الجماعة اللغوية هي العامل المؤثر في كل ما يتعلق بالمبنى، وذلك أن للمتكلّم أن يَختار ما يشاء من المعاني التي لا نهاية لها ليعبّر منها في جمل لا نهاية لعددها أيضـــا، فهو مُحْدِث المعاني ومُنَظّمها، وهو بِحَسْب دوافعِه وأغراضِه الاجتماعية وبحسب السّـــياق يخـــتار المعـــنى الدّلالي للجملة، ووفقا لهذا المعنى يختار المعاني المفرَدة المتمثّلة في الألفـــاظ، ويؤلف بينها ويربط، ويوظّف كل لفظةٍ، فيختار ما يراه مناسبا لها من المعاني النّحويّة الخاصّة كالفاعلية والمفعولية والإضافة، كما يختار ما يراه مناسبا لصيغة الجُملة من المعاني النّحويّة العامة كالإثبات والنفي والخبر والإنشاء والشرط والتأكيد..."[١] ويؤيد هذا الرأي القول بأن الإعراب في اللغة العربيّة قيمةٌ وظيفية تساعد على أداء المعاني وتحديدها.[٢]

إن المـــتكلّم – كما يقرر بعضُ الباحثين – هو المُنَفِّذُ للعملية النّحويّة وهو الذي يحقـــق تصفية الأبنية المبذولة لأغراضه فيُحْدث المعاني التي يريد والعلامات التي يضع بين الصِّيغ والمركبات في فضاء التركيب.[٣]

وليس أدل على كون المتكلّم قادراً على تجويز بعض الأوجه النّحويّة الخارجة على الأصـــل القاعدي للجملة في بنيتها الأساسيّة أو الجوانية، من كلام صاحب الكتاب على ذلـــك، حـــين يَلحَظ هذه القدرة بصورة متكررة، فيعزو للمتكلم وجوهاً من الأحكام

---

[١] :مصطفى حميدة : نظام الارتباط والربط : ٥٢.

[٢] :عدنان بن ذريل: اللغة والدلالة: ٨٨.

[٣] :المنصف عاشور: نظرية العامل ودراسة التركيب،٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المُلْتبســـة بالأمـــثلة الكلامية التي يوردها في أبوابه المختلفة، وأظهر ما جاء عنده في هذا، تقريرُه الذي يورده في باب موسوم بـــ" باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول"، هذا الـــتقرير الذي غدا متكئاً لأبواب التّقديم والتّأخير من بعده عند النّحويين وأصحابِ علم المعـــاني على السواء، يقول في بابه المتقدّم من أبواب الكتاب: " ... فإن قدّمتَ المفعول وأخّـــرتَ الفاعلَ جرى اللفظُ كما جرى في الأول، وذلك قولُك : ضرب زيداً عبدُ الله، لأنّك إنما أردتَ به مُؤخَّرا ما أردتَ به مُقدّما، و لم تُرِدْ أن تَشْغَل الفعلَ بأول منه وإن كان مؤخّـــرا في اللفـــظ. فمن ثمّ كان حدُّ اللفظ أن يكونَ فيه مقدّماً، وهو عربيٌ جيّدٌ كثيرٌ. **كـــأنّهُم إنّمـــا يُقَدِّمـــون الذي بِيانُه أَهَمّ لَهُم وهُم بِبَيانِه أَعْنى، وإنْ كانا جميعاً يُهِمّانِهم ويَعْنِيانِهم**" [١]

إن هـــذا التصـــريح من سيبويه يمنحُ للباحث شيئا غير يَسير من الاطمئنان إلى أن النّحاة الأوائل كانوا يَلْتفتون إلى المقام التخاطبي أو سِياق الحال بمكوناته قبل أن يَقطعوا في أحكامهم، وحين يُدونون قواعدهم، فقاعدة التّقديم هذه من قواعد التّوجيه التي لا تختص بـــبابٍ نحـــويٍ بعينه، بل هي مُتواتِرة في كثير من المواضع التي يَتقدّم فيها شيءٌ مما أصله التّأخير، والعنايةُ والاهتمامُ إنما هما مطلبان مُلِحّان لدى المتكلّم الذي تتابع المعاني في نفسه، فيـــنفذُ إلى لســـانه ما هو أشد أهمية وأبلغ عناية، فيأتي الكلام متغيرة أجزاؤه عن رتبتها الأصـــلية إلى صورة فرعية من الصور الجائزة في النّظم العربي. وهذا يشبه قول عبد القاهر الجرجاني في أسراره" وهذا الحكمُ – أعني الاختصاصَ في التّرتيب – يقعُ في الألفاظ مُرَتَّبا عـــلى المعاني المُرَتّبة في النفس، المُنتظِمة فيها على قضية العقل"[٢] فيقول أحد المحدثين: وتغير الرّتبة لا يكون إلا لعلّة خطابية (تداولية).[٣] أي لما يكون بين المتكلّمين من أغراض تداولية تخاطبية.

وإن كـــان المثال المذكور آنفاً من الكتاب يعدّ من أوضح أمثلته في اعتباره المتكلّم مجوّزاً لأحكام نحْويّة، إلا إنه ليس المثال الوحيد، فنورد فيما يلي شذرات متناثرة في كتابه تُرْجِع للمتكلم الحكم في مُغايرة النّظم بحذف أو مخالفة رتبة أو ما سواها، ففي باب يسميه

---

[١] : الكتاب ١/٣٤.

[٢] : عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة:٥.

[٣] : سعيد حسن بحيري، عناصر النّظريّة النّحويّة في كتاب سيبويه، ١٤٣-١٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" بـــابُ ما يكونُ المبتدأُ فيه مُضْمَراً ويكون المبني عليه مُظهرا" يقول : "وذلك أنّكَ رأيتَ صورةَ شخصٍ فصار آيةً لك على معرفةِ الشّخصِ فقلتَ: عبدُ الله وربي، كأنّك قلتَ: ذاك عـــبدُالله، أو هـــذا عبدُ الله. أو سمعتَ صوتاً فعرفتَ صاحبَ الصّوتِ فصارَ آيةً لك على معرفـــته فقلت : زيدٌ وربي. أو مَسستَ جسداً أو شَمَمْت ريحاً فقلتَ: زيدٌ، أو المسكُ. أو ذُقـــتَ طعاماً فقلت: العسلُ."[1] فهذا مثالٌ فاقعٌ على جواز حذف عمدة في الجُملة الاسمية، ولـــيس جوّز هذا الحذف سوى إرادة المتكلّم وحوّاسه التي باتت مُعْلِمة بما يكفي لتكون مبتدأ يُبنى عليها حكم في جملة، فتمييز حاسّةِ السمع لذاك الصوت، أو معرفةُ العين لتلك الهيئة أو إلْفُ اللمس لهذا المُحَسّ، كلها من حواس المتكلّم التي غدت مبتدآت أُسْنِد إليها الخبرُ الذي نُطق بالفعل في الموقف الكلامي المخصوص.

ومـــن أمـــثلة الجواز في النّظم أيضا حذفُ الأفعال في الجُملة الفعلية، لأن في نِيّة المـــتكلّم أو أمنيته ما يسُدّ مَسَدّه، ويُبْقي عمله، وهذا مثال يورده سيبويه نقلاً عن أستاذه الخلـــيل:" ومثلُ ذلك أيضا قولُ الخليل رحمَه الله، وهو قولُ أبي عمرو: ألا رجلَ إمّا زيداً وإمّـــا عمراً، لأنه حين قال : ألا رَجُلَ، فهو مُتَمَنٍّ شيئاً يسألُه ويريده، فكأنّه قال: اللهُم اجعله زيداً أو عمراً، أو وَفّق لي زيداً أو عمراً.."[2].

ويسترسل سيبويه في كتابه في إيراد أمثلة متتالية، تُعلي من إرادة المتكلّم، وتُعطيها الحقَّ كلَّه في توجيه نظم الكلام، ومن هذا ما يصرّح به من جديد:

" وذلـــك قولك: أقائما وقد قعد النّاس، وأقاعداً وقد سارَ الرّكْبُ، وكذلك إن أردتَ هذا المعنى و لم تَسْتَفْهِم، تقول: قاعداً عَلِم اللهُ وقد سار الركبُ، وقائماً قد عَلم الله وقد قعدَ الناسُ.

وذلـــك أنه رأى رجلاً في حالِ قيامٍ أو قعودٍ، فأراد أن يُنبِّهَه، فكأنه لفظ بقوله: أتقومُ قائما وأتقعدُ قاعداً، ولكنه حَذَف استغناءً بما يرى من الحال، وصار الاسمُ بدلا من اللفظ بالفعل، فجرى مجرى المصدر في هذا الموضع.

---

[1] : الكتاب ٢/ ١٣٠.

[2] : الكتاب ١/ ٢٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومـــثلُ ذلك عائذاً بالله من شَرّها، كأنه رأى شيئاً يُتّقى فصار عندَ نفسِه في حال اسْـــتعاذة، حتى صار بمنزلةِ الذي رآه في حالِ قيامٍ وقعودٍ، لأنه يرى نفسَه في تلك الحال، فقال: عائذاً بالله، كأنه قال: أعوذُ بالله عائذاً بالله، ولكنه حذَف الفعلَ لأنه بدلٌ من قوله: أعـــوذُ بالله. فصار هذا يجري ههنا مجرى عياذاً بالله. ومنهم من يقولُ: عائذاً بالله من شَرِّ فلان."[١]

وهكـــذا كـــان شأن النّحاة من بعد سيبويه، لحظوا قدرة المتكلّم، وأحقيته في أن يُضـــمر من الكلام أو يُبدل بحسْب ما يُمكّنُه من تأدية مُرادِه، فيما لا يخل بقاعدةٍ أصلية. فمـــن مُسوّغات المتكلّم التي تذهب به إلى حذف بعض العناصر في الجُملة كثرة استعمال التعبير بين المتكلّمين وشيوعه بما يحقق له نوعا من المعلومية لا تحتاج إلى إيراد ما قد يُفهم ضمنا، فمثل هذا ما يذكره المبرّد في مقتضبه:" ..فمن المصادر ما يكثرُ استعمالُه حتى صار بـــدلاً مـــن الفعل، فقولُك : حمداً وشكراً، لا كُفراً، وعَجباً. إنما أردت: أحمد الله حمداً، فلولا الاستعمالُ الذي أبان عن ضميرك لم يَجُز أن تُضْمِر، لأنه موضعُ خبر.."[٢]

وأبـــين مـــن ذلك كله في اعتماد المتكلّم عاملا للأثر النّحوي، ما يقرره ابن جنّي صـــراحة في خصائصه حين يذهب إلى اعتبار المتكلّم هو العاملُ لا غيره، يقول: " ومثله اعتـــبارُك بـــاب الفاعل والمفعول به، بأن تقول: رفعت هذا لأنه فاعلٌ، ونصبت هذا لأنه مفعـــولٌ. فهذا اعتبار مَعنويّ لا لفظي ... ألا تراك إذا قلتَ : ضرب سعيدٌ جعفراً ، فإن ضَـــرَبَ لم تعمـــلْ في الحقيقة شيئاً.. فهذا هو الصوتُ، والصوتُ مما لا يجوز أن يكون منســـوباً إلـــيه الفعل.. .. فأمّا في الحقيقة ومَحصول الحديثِ، فالعملُ من الرّفع والنّصب والجرّ والجزم إنما هو للمتكلّم نفسِه، لا لشيءٍ غيره"[٣].

ولســـنا بصدد مناقشة قضية العامل هنا التي يذهب إليها ابن جنّي ، ولكننا نُسَلّطُ الضـــوءَ على اهتمامه بالمتكلّم الذي أخذ أشكالا متعددة، فالمتكلّم عاملٌ، والمتكلّم أيضاً معـــيارٌ لقياس الخفة والثقل، وما يُبنى على الاستثقال من حذف أصوات وإبدالها، يقول: "إنهم إنما يقدّمون الأثقلَ ويؤخّرون الأخفَّ من قِبَلِ أنّ المتكلِّم في أوّل نُطْقِه أقوى نَفساً،

---

[١] : الكتاب،١/٣٤٠.

[٢] : المبرد: المقتضب:٣/٢٢٦.

[٣] : ابن جنّي ، الخصائص ١/١٠٩-١١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأظهر نشاطاً.."[١]، والمتكلّم كذلك يوجب اختيارات نظمية متغايرة، فيجيز حذفاً يُتوصَّل إليه بمعرفة غرضِ المتكلّم " ..وذلك قولك: عندي عشرون، واشتريتُ ثلاثين، ومَلكتُ خمسةً وأربعين. فإنْ لم يُعلم المراد لَزِم التمييزُ إذا قصد المتكلّمُ الإبانةَ. فإن لم يُرِدْ ذلك وأراد الإلْغاز وحَذْفَ جانب البيان لم يوجِبْ على نفسه ذكرَ التمييز. وهذا إنما يُصلحُه ويُفْسِده غرضُ المتكلّمِ وعليه مدارُ الكلام"[٢] فالحذف في هذا كله جائز، ولكن ما يجعله الاختيار، هو نية المتكلّم التي تراوح بين الإلغاز والإبانة، بحسب سِياقه الذي يعنيه.

ومن الأمثلة المذكورة حول نية المتكلّم التي تجعل ترك الذكر خيرا من الذكر المثال الشهير الذي تتناقله كتب النّحاة في ذكرها حذف الفعل العامل وبقاء أثره، ويذكره سيبويه أولا: " ومن ذلك قولُ العربِ في مثلٍ من أمْثالهم : اللهُم ضبعاً وذئباً، إذا كان يدعو بذلك على غنمِ الرّجُل. وإذا سألتَهم ما يَعنون قالوا : اللهم اجمع أو اجعل فيها ضبعاً وذئباً . **وكلُّهم يُفَسِّرُ ما يَنوي**. وإنما سهل تفسيره عندهم لأن المضمر قد استعمل في هذا الموضع عندهم بإظهار"[٣] .

ويعقّب ابن جنّي على هذا المثل الذي ينقله عن سيبويه، قائلاً :" فهذا تصريح منهم بما ندّعيه عليهم، وننسبه إليهم"[٤]وهي لمحة متبصرة من هذا النّحوي، فكأنه يتمسك بأهداب تصريح من أبناء اللغة أنفسهم في تأويل ما أضمروه اختياراً، وهذا يشبه تماما عمل النّحاة الذين ما يزالون يتبعون أوجه الكلام المفارقة لأصول الوضع اللغوي، ويحاولون فيها وجها يقرّب المثال المستقرى من الأصل المستنتج. ليعيد إلى أذهاننا تساؤلا مضى في بدايات البحث، عن تلك الدورة ثلاثية المراحل بين ابن اللغة الناطق والمتكلّم على سليقته، والنّحوي الذي يقعّد ويؤصل لهذه السليقة، والأصولي الذي ينظر في عمل النّحوي، وحقيقة تراتب هذه الدورة المتخيلة.

وابن جنّي نفسه، هذا النّحوي النابه، يعقد في مصنفه الخصائص باباً يسميه شجاعة العربيّة، يقيمه على الأوجه التي تتخذها العربيّة في خروجها على الأصول الجوّانية

---

[١] : ابن جنّي ، الخصائص ١/٥٥.

[٢] : ابن جنّي ، الخصائص ٢/٣٧٨.

[٣] : سيبويه ١/٢٥٥ وانظر الخصائص ١/٢٥٠.

[٤] : ابن جنّي ، الخصائص ١/٢٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لـــلجملة العربيّة، ويخصصه للحديث عن الحذف والزيادة والتّقديم والتّأخير والحمل على المعنى والتحريف[١]. وأظن أن في تسميته للباب شيئا من المجاز المرسل، فهو يسميه شجاعة العربـــيّة وكـــأني به يقصد شجاعة ابن العربيّة الناطق بها على أوجه متجددة تستقيم لنيته وإرادتـــه بما لا يكسر أصلا، في الوقت نفسه الذي لا يستبقي فرعا لا يعتليه ليحقق الثراء القولي الذي يتيحه ثراء اللغة وسعتها.

ويتعاضـــد تصرف المتكلّم بطرائق القول مع حاله الشاهدة، لتمثل معا بعداً محكماً يذهب بالكلام مذهبه المقصود، ويقول ابن جنّي في هذا:

"وقـــد حذفت الصفة ودلت الحال عليها. وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سير عليه ليل. وهم يريدون ليل طويل. وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دل من الحـــال عـــلى موضـــعها. وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخـــيم والتعظـــيم مـــا يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك.. وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنسانا! وتُمكّن الصوت بإنسان وتفخمه، فتستغني بذلك عن قولك: إنسانا سمحا أو جـــواداً أو نحـــو ذلك. وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان إنساناً! وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لئيماً أو لَحِزاً أو نحو ذلك."[٢]

ثمّ يجـــيء الـــزمان متأخّرا بصاحب نتائج الفكر، فيكون هذا التأخّر عونا له على طرح أنظار أبين، وملامح متكاملة الجلاء إلى حد بعيد، وهذا الذي نقوله يتسامع إلينا من بعض ما خلّف في مصنفه المذكور من مثل قوله:" لا يجوز إضمار حروف العطف، خلافا للفارســـي ومـــن قال بقوله، لأن الحروف أدلة على معان في نفس المتكلّم. فلو أضمرت لاحتاج المخاطَب إلى وحي يسفر به عمّا في نفس مُكَلِّمه، وحكم حروف العطف في هذا حكم حروف النفي والتّوكيد والتمني والترجي وغير ذلك، اللهم إلا أن حروف الاستفهام قـــد يسوغ إضمارها في بعض المواطن، لأن للمستفهم هيئة تخالف المخبر..."[٣]ويقول في

---

[١] : ابن جنّي ، الخصائص: ٢/٣٦٦.

[٢] : ابن جنّي، الخصائص، ٢/٣٧٠.

[٣] :السّهيلي، نتائج الفكر:٢٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موضـــع آخر " اعلم أن الكلام صفة قائمة في نفس المتكلّم يعبر للمخاطب عنه بلفظ أو لحظ أو بخط.."[١]

إن السّهيلي يعي أن الكلام وضع أصلا للتعبير عما يتشكل في دواخل المتكلّم، فلا يجوز بحال إذن أن يُقتطع شيء من هذا الدليل، ولو كان ذلك في حروف العطف، حتى لا يُنتقص شيء مما أراد المتكلّم التعبير عنه، هذا التعبير الذي يتجسد بصور متعددة يشير إليها بقولـــه: لفـــظ أو لحظ أو خط، وأهم ما أود الإلماح إليه في أقواله تلك، إشارته" إلا أن حـــروف الاســـتفهام قد يسوغ إضمارها في بعض المواطن، لأن للمستفهم هيئة تخالف المخبر" ، إن السّهيلي يسوِّغ حذف حروف الاستفهام لأن في هيئة المستفهم أو السائل من القـــرائن ما يسد مسد أدوات الاستفهام تلك، وذلك يكون إما بتنغيم أو نبر أو حتى هيئة جســـدية دالة على استفهام، وهذه كلها فيما يرى السّهيلي لا تكون في حروف العطف وفي حـــال الإخبار، وهذا ما ينقله صاحب الفصول المفيدة في الواو المزيدة عن جماعة من الـــنّحويين المتأخّرين، يقول: " اختلفوا في إضمار حرف العطف، فالأكثرون على أنه لا يضمر لأن الحروف أدلة على معان في نفس المتكلّم فلو أضمرت لم يكن شيء يدل عليها فلا يُهتدى إلى مراد المتكلّم، وكما أن حروف النفي والتّوكيد والتمني والترجي ونحوها لا تضـــمر فكذلك حروف العطف، وإما إضمار حروف الاستفهام في بعض المواضع فلأن للمســـتفهم هيـــئة تخالف هيئة المخبر ففي الكلام ما يدل عليه، وذهب أبو علي الفارسي وجماعـــة من المتأخّرين كابن مالك وابن عصفور ونحوهما إلى جواز ذلك وقيده المحققون عند فهم المعنى"[٢].

إن كل ما سبق من الإشارات، يبين حقيقة أن المتكلّم بوصفه مُعْلِما، يمكنه الخروج إلى أوجـــه جائزة يختارها بما يتناسب مع غرضه في التّواصل، وإذا كانت الوظيفة المحورية للكـــلام هـــي الإعـــلام، فإن كيفيات تجلّي هذا الإعلام تختلف وتتعدد وتتفاوت، وفقا لاستثمار إمكانيات الكلام من ناحية، والغرض من هذا الإعلام من ناحية ثانية. أي وفقا لسِـــياق الإعـــلام والكفاءة اللغوية للمُعلم بما بين أساليب النمط الواحد من فروق، مع

---

[١] : السّهيلي، نتائج الفكر:٢١٨.

[٢] : ابن كليكلدي: الفصول المفيدة في الواو المزيدة ١/١٢٤-١٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مُلاحظة أن هذه الفروق ينتج عنها تغير الغرض الإعلامي، وعليه فعلى الناظم أثناء إعلامه أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه – كما يسميها عبد القاهر[١] – وينبغي على المُعْلِم أن ينظر إلى هذه الفروق، ويستثمرها وفقاً لغرضه من الإعلام.[٢]

ب: في الإعراب:

لا يـــتوقف الدور الذي يتحمله ابن اللغة المتكلّم بها على تجويز وجوه متجددة في نظـــم الكـــلام، بحذف أو تغيير رتبة أو سواها.. بل يمتد دوره إلى تمكنه من تفضيل وجه إعـــرابي عـــلى غيره من الوجوه الممكنة، وفقاً لما عليه نِيّته، وهذا مما له إشارات جليّة في مصنفات النّحويين وأعمالهم، فهذا سيبويه يقرر أن:

"مما ينتصب على إضمار الفعل المستعمل إظهاره، أن ترى الرجل قد قدم من سفر فتقول: خيرَ مقدم. أو يقول الرجل: رأيت فيما يرى النائم كذا وكذا، فتقول : خيرا وما سرّ، وخيرا لنا وشرا لعدونا. وإن شئت قلت: خيرُ مقدم، وخيرٌ لنا وشرٌ لعدونا.

أما النّصب فكأنه بناه على قوله: قدمتُ، فقال: قدمتَ خيرَ مقدم، وإن لم يسمع منه هذا اللفظ فإن قدومه ورؤيته إياه بمنزلة قوله: قدمتُ..

وأما الرّفع فعلى أنه مبتدأ أو مبني على مبتدأ، ولم يرد أن يحمله على الفعل، ولكنه قال: هذا خيرُ مقدم، وهذا خيرٌ لنا وشرٌ لعدونا..."[٣]

ولمـــا كانت اللغة في تسمحها، تتيح حذف بعض عناصر الجُملة فإن التقدير، أو التأويل، من أهم الطرائق التي تعين ابن اللغة على مقصده، فاختلاف المقدر المحذوف، يجوّز الذهـــاب بـــالمذكور إلى وظيفة أو حالة إعرابية تفيد معنى لا يتحقق بغيره من التقديرات المستبعدة، ويمثل سيبويه لهذا بما دوّن في كتابه:

---

[١] : عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز: ١٧٣ وما يليها.

[٢] : طارق النعمان: اللفظ والمعنى بين الأيدلوجيا والتأسيس المعرفي للعلم.٣٢٢-٣٢٣.

[٣] : الكتاب، ١/٢٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" وزعم عيسى أنه سمع ذا الرمة ينشد هذا البيت نصبا:

لقد حَمَلتْ قيسُ بن عَيْلان حَرْبها على مُسْتَقِـلٍّ للنوائبِ والحـرب

أحاًها إذا كانتْ عِضاضاً سما لها على كلِّ حالس من ذَلولٍ ومن صعب

زعـم الخليل أن نصب هذا على أنك لم ترد أن تحدّث الناسَ ولا من تخاطب بأمر جهلـوه، ولكنَّهم قد علموا من ذلك ما علمتَ، فجعله ثناء وتعظيماً، ونصبه على الفعل كأنه قال: أَذْكُرُ أهلَ ذاك، وأذكرُ المقيمين، ولكنه فعل لا يستعمل إظهاره.

وهـذا شبيه بقوله: إنّا بني فلان نفعل كذا، لأنه لا يريد أن يخبر من لا يدري... ولكنه ذكر ذلك افتخارا وابتهاءً...

ومن هذا الباب في النكرة قول أمية بن أبي عائذ:

ويأوي إلى نِسْوة عُطّلٍ وشُعثاً مراضيعَ مثل السّعالي

كأنـه حيث قال: (إلى نسوة عُطّل) صرن عنده ممن علم أنهن شعثٌ، ولكنه ذكر ذلك تشنيعاً لهن وتشويها. قال الخليل: كأنه قال: وأذكُرُهن شعثا، إلا أن هذا فعل لا يستعمل إظهاره. وإن شئتَ جررتَ على الصفة."[1]

فـإرادة الرّفع تمنح القول معنى يغاير ذلك الذي يكون بإرادة النّصب، فالرّفع يفيد مجرد الإخبار، في مثل قوله: إننا بنو فلان، ولكن ترك الرّفع إلى النّصب، يعني العُدول من مجـرّد الإخبار إلى الافتخار، فالنّصب كائن على التخصيص، كأنه قال: إننا – أخص بني فـلان أو أعنيهم – ، وكذلك القول في المثال الثاني، فإرادة المتكلّم التي تنحاز عن اختيار الوصـف المجـرد للنسوة المذكورات، إلى تقصّد إهانتهن بجعلهن مخصوصات للذم يذهب بالاختيار الإعرابي إلى النّصب دون الرّفع.

ويشبه القولُ فيما سبق القولَ على المثال التالي:

" وأما ما دخله معنى الدعاء فابتدئ به وهو نكرة، فلا يكون إلا في معنى الأحداث والمصادر. فما ارتفع منه نحو سلامٌ عليكم. وويلٌ له، فإنما يرتفع لوجهين: أحدهما: أنك لما كنت داعياً وكان الاسم المبتدأ النكرة هو المطلوب بالدعاء، صار كالمفعول ووقع موقعه، كأنك قلت: أسال الله سلاما عليك. أو أطلب منه ويلاً للكافرين. ولكنك لم تنصبه كما

---

[1] : الكتاب، ٢/٦٥-٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نصـــبت ســـقياً وجدعاً ورعياً وعقراً؛ لأنك تريد أن تشوب الدعاء بالخبر، كأنك تريد: ســـلام مـــني عليكم. فصار السلام في حكم المنعوت بقولك مني، فقوي الرّفع فيه على الابتداء؛ لأن النكرة المنعوتة يبتدأ بها.

وهـــذا هو الوجه الثاني من الوجهين المحسِّنَين للابتداء بها والتّقدم لها؛ ألا ترى أن كل من يقول: سلام عليكم! إنما يريد أن يشعر بأنه مسلم ومحيٍّ، فالسلام صادر منه لأنه في معـــنى التحية. وليس كذلك سقياً وجدعاً؛ لأن المتكلّم بها ليس بساق ولا جادع ولا عاقر، وإنما هو طالب من الله تعالى هذه الأشياء فهي مفعولة."[١]

ثانياً : المخاطَب مجوِّزاً:

أ: في النّظم:

يقـــول الدكـــتور نهـــاد الموسى في بحثه الموسوم بـــ"الأعراف أو نحو اللسانيّات الاجتماعـــية في العربـــيّة" : " يمثل المخاطَب أحد أعمدة الموقف الكلامي، وتصبح فائدة المخاطَب معياراً لصحة الكلام ... ويشبه علم السامع أن يكون مسوّغاً ثابتاً للحذف... ويمثل علم السامع عندهم دليلا على اختلاف جهات الكلام، وخروج العبارة عن مدلولها الـــنّحوي الظاهـــري إلى معنى مختلف... كما يصبح علم المخاطَب شرطا ضابطاً...بل تصـــبح غاية الشكل المختار للتعبير موافقة حال المخاطَب والسامع تحقيقاً لمطلب الإبلاغ فيه.."[٢]

وهذا الذي تنبه إليه د. الموسى وقرره هو ما نجده بإلماحات متفرقة في كتب النّحاة في التّراث العربي، فلقد لحظ النّحويّون الأثر الذي يحدثه خروج الكلام إلى متلقٍّ، بل كانوا يقررون أنه لولا وجود المتلقي لم يتكلّف إنسان قولاً ، يقول السّهيلي في ذلك في نتائجه" ثم لمـــا كـــان المخاطَب مشاركاً للمتكلم في معنى الكلام، إذ الكلام مبدؤه من المتكلّم،

---

[١] : السّهيلي، نتائج الفكر، ٤١٢.

[٢] :انظر : نهاد الموسى: الأعراف أو نحو اللسانيّات الاجتماعية في العربيّة ١٥٣-١٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنـــتهاه عند المخاطَب، ولولا المخاطَب ما كان كلام المتكلّم لفظاً مسموعاً، ولا احتاج إلى التعبير عنه.."[١].

ويســـبق هذا التقرير من السّهيلي إشارات متكررة لدى النّحاة بدءا من سيبويه، تفـــيد بـــأن المخاطَب مسوّغ حاضر في أذهانهم لكثير من الظواهر النّظمية والإعرابية التي تخرج على أصول قواعدهم، فكانت عبارة " لعلم المخاطَب" أو " لعلم السامع " مما يتكرر كـــثيرا في كتـــبهم، فمن أمثلة ذلك ما جاء في الكتاب " ... وإنما أضمروا ما كان يقع اســـتخفافاً، ولأن المخاطَب يعلم ما يعنى، فجرى بمنزلة المثل، كما تقول: لا عليك، وقد عرف المخاطَب ما تعني، أنه لا بأس عليك، ولا ضر عليك.."[٢]

ويقول في بابٍ يسميه (باب يحذف المستثنى فيه استخفافاً) :" وذلك قولك (ليس غير) و(ليس إلا)، كأنه قال: ليس إلا ذاك، وليس غير ذاك، ولكنهم حذفوا ذلك تخفيفا واكتفاء بعلم المخاطَب ما يعني..... ومثل ذلك أيضا قوله:

لو قلت ما في قومها لم تيثم يفضلها في حسب وميسم

يريد ما في قومها أحد، فحذفوا هذا كما قالوا : لو أن زيدا هنا، وإنما يريدون لكان كذا وكذا، وقولهم: ليس أحد، أي ليس هنا أحد.

فكل ذلك تخفيفا، واستغناء بعلم المخاطَب ما يعنى"[٣]

إن مـــراعاة المتكلّم لحال المخاطَب في تصريف الكلام وفق الأوجه الجائزة في نحو العربيّة بأن يقدّم أو يؤخّر، ويذكر أو يحذف تبعا للشكل الكلامي الذي يحقق فائدة الكلام دون أن يلـــبس المعنى على السامع لهو أحد صور شجاعة العربيّة التي تحدّث عنها صاحب الخصائص، فالكلام -كما تبين سابقا – إنما يوضع أصلا لإفادة المتلقي خبرا أو معنى ، أو لإحداث تواصل بين طرفي العملية الكلامية، وكانت مراعاة هذا الملحظ شأنا ماثلا أيضا في أعمـــال الـــنّحاة بعـــد سيبويه، يتناولون أوجه الكلام فيحللونها ويردون الفروع إلى أصـــولها.. فيستنتجون في كثير من أوجه الخروج على الأصل أن مراعاة المخاطَب سببٌ مباشـــرٌ فـــيها، فبمجرد أن تتوافر القرائن المقالية أو الحالية التي تحقق للمخاطب شيئا من

---

[١] :السّهيلي: نتائج الفكر في النّحو: ٢١٩.

[٢] : الكتاب:١/٢٢٤.

[٣] : الكتاب: ٢/٣٤٤-٣٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفائدة، فإن ما يقابل هذه الفائدة من التركيب الكلامي يسقط، ولا يتكلف المتكلّم تزيدا بذكره.

ومن بديع أمثلة المبرّد ما يحكيه في باب رويد، يقول:

" واعـــلم أن رويداً تلحقها الكاف وهي في موضع افعل، وذلك قولك: رويدك زيـــدا، ورويدكـــم زيـــداً.وهـــذه الكاف التي لحقت رويداً إنما لحقت لتبين المخاطَب المخصـــوص، لأن رويد تقع للواحد والجميع، والذكر والأنثى، فإنما أدخل الكاف حين خاف التباس من يعني بمن لا يعني، وإنما حذفها في الأول استغناء بعلم المخاطَب أنه لا يعني غيره.

فـــلحاق الكاف كقولك: يا فلان، للرجل يقبل عليك. وتركها كقولك للرجل أنـــت تفعـــل، إذا كان مقبلاً عليك بوجهه منصتاً لك، فتركت يا فلان حين قلت: أنت تفعـــل؛ اســـتغناء بإقباله عليك. وقد تقول أيضا: رويدك، لمن لا يخاف أن يلتبس بسواه، توكيداً، كما تقول للمقبل عليك المنصت لك: أنت تفعل ذاك يا فلان، توكيداً."[١]

ويمضـــي المـــبرد في ذكر الأمثلة الدالة على كون المخاطَب مجوّزاً في النّظم، وفي الحـــذف خاصّة. يقول: ".. فأما قوله { إذا السماء انشقت. وأذنت لربها وحقت} فقد قـــيل فيها الأقاويل، فقوم يقولون: فأما من أوتي كتابه بيمينه هو الجواب. لأن الفاء وما بعدها جواب، كما تكون جواباً في الجزاء، لأن إذا في معنى الجزاء. وهو كقولك: إذا جاء زيد فإن كلمك فكلمه. فهذا قول حسن جميل.

وقـــال قوم : الخبر محذوف، لعلم المخاطَب. كقول القائل عند تشديد الأمر: إذا جـــاء زيد، أي إذا جاء زيد علمت، وكقوله: إن عشتُ، ويكِلُ ما بعد هذا إلى ما يعلمه المخاطَب. كقول القائل:لو رأيت فلاناً وفي يده السيف."[٢]

ويقول في مكان يلي هذا: " فأما حذف الخبر فمعروف جيّد، من ذلك قوله{ ولو أنّ قرآنا سيّرت به الجبال..... بل لله الأمر جميعا} لم يأت بخبر لعلم المخاطَب. ومثل هذا

---

[١] : الكتاب، ٢٤٤/١.

[٢] : المبرد، المقتضب: ٧٩/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكلام كثير، ولا يجوز الحذف حتى يكون المحذوف معلوماً بما يدل عليه من متقدّم خبر أو مشاهدة حال."[١]

فالمبرد كما غيره من النّحويين، يحذف من الكلام، استغناء بفهم المخاطَب للمعنى رغم ما كان في الكلام من حذف، ويستدل على فهم المخاطَب بما قد يظهر في الكلام من قـــرائن كلامية (من متقدّم خبر) ، أو ما يحيط بالحدث الكلامي من شاهد الحال (أو مشاهدة الحال) .

ب – في الإعراب:

وكمـــا كان المخاطب مجوّزا في النظم، فإن بعض الأثر لرعاية حال المخاطب مما يجـــوّز للإعـــراب وجوهـــاً، ولعلّه من المنطقي أن يكون أثره في النظم أكبر من مثيله في الإعراب، ويسوّغ ذلك بأن وجوه الجواز النّحوي كائنة في النظم بصورة تفوق تلك التي في الإعراب، ومردّ ذلك إلى تسمّح الجُملة العربيّة في نظمها، واتساعها وثرائها من خلال هـــذا الباب الذي تضبطه كثير من القرائن التي تحفظ للبنية أصلها العميق، بينما الأمر في الإعـــراب يختلف قليلاً، فإن النّحاة حاولوا جهدهم ضبط الإعراب في الوظائف النّحويّة، لأن علامات الإعراب في كثير من الوقت إنما هي أدلة على الوظائف النّحويّة، بالاستعانة بقرائن أخرى كالبِنْية الصرفية والمحل الإعرابي وسواها.

ومن الأمثلة التي يتوصّل بها إلى كون المخاطب مجوّزاً في الإعراب، أسلوب النعت المقطـــوع للترحم، أو لغير ذلك، "ومثاله في صفة الترحم مررت بزيد المسكين، يجوز فيه الخفض على الإتباع، والرّفع بتقدير هو، والنّصب بتقدير أرحم. ومثاله في صفة الإيضاح مـــررت بزيد التاجر، يجوز فيه الخفض على الإتباع، والرّفع بتقدير هو، والنّصب بتقدير أعـــني. ولا فرق في جواز القطع بين أن يكون الموصوف معلوما حقيقة أو ادعاء، فالأول مشـــهور وقد ذكرنا أمثلته. والثاني نص عليه سيبويه في كتابه فقال: وقد يجوز أن تقول:

---

[١] : المبرد: المقتضب ٢/٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مررت بقومك الكرام، يعني بالنّصب أو بالرّفع؛ إذا جعلت المخاطب كأنه قد عرفهم، ثم قال: نزلتهم هذه المنزلة، وإن كان لم يعرفهم."[١]

وإن كان تخريج بعض النّحاة للنعت المقطوع للرفع إنه من أبواب المبتدأ المحذوف وجوباً[٢]، فإنه أيضا يتخرج إعرابه على إضمار ناصب إذا جاء النعت مقطوعا إلى النّصب، يقول ابن عقيل في موضع ثان:

"إذا قطع النعت عن المنعوت رفع على إضمار مبتدأ أو نصب على إضمار فعل نحو مررت بزيد الكريم أو الكريم أي هو الكريم أو أعني الكريم، وقول المصنف لن يظهرا معناه أنه يجب إضمار الرافع أو الناصب ولا يجوز إظهاره. وهذا صحيح إذا كان النعت لمدح نحو مررت بزيد الكريم، أو ذم نحو مررت بعمرو الخبيث، أو ترحم نحو مررت بزيد المسكين، فأما إذا كان لتخصيص فلا يجب الإضمار "[٣]

والقصد بالنعت المقطوع يتجه إلى الاهتمام بالمخاطب، سواء أكان هذا الاهتمام رحمة أو مدحا أو حتى للذم، فإن إظهار صفة المنعوت مما يوجبه السّياق، فكأنّك تريد تنبيه السامع بتحقيق صفة بعينها للموصوف فتخالف الإعراب المتوقّع، وهذا الإخلاف في التوقّع مما يقرع انتباه السامع إلى النعت المقصود.

ثالثا: المحيط مجوّزاً

أ: في النّظم:

عني سيبويه بحركة العناصر المكونة للكلام، وما ينشأ عن التغير في رتب هذه العناصر من تغير في المعنى، كما عني بما بين الكلام وعناصر المقام من علاقات تجاذب قويّة تسهم بدور فعّال في تفسير النّص تفسيراً مقبولا، فالعَلاقة بين النّص والمتكلّم علاقة إنشاء

---

[١] : ابن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، ٢٨٨.

[٢] : انظر شرح ابن عقيل: ١/٢٥٥.

[٣]: شرح ابن عقيل : ٣/٢٠٤-٢٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تكملها علاقة النّص بالمخاطَب وهي علاقة فهم. ويحدث التبليغ باكتمال الوصل بين هذه العلاقات في سِياق مناسب.[١]

وكـــتاب سيبويه يشتمل على أمثلة عديدة تبين إلى أي حد كان مؤلفه يحتكم إلى اللغـــة لا إلى القواعد النّحويّة، وينفذ إلى طبيعتها وطبيعة الناطقين بها وظروف المعاني التي قصد بها التعبير عنها، دون أن يقف عند شكلها الظاهري وملامحها المنطقيّة. التي كثيرا ما تتـــنافى مـــع طبيعة نشأتها وتطوّرها. من ذلك ما نجده له عندما يجانب النّحو وضوابطه ويتكلم عن اللغة من حيث أداؤها للمعاني.. [٢]

والحديـــث عـــن المحيط الخارجي الذي ينشأ فيه الحدث الكلامي، يقتضي الإلمام بمعطـــيات شتى تكتنف هذا المحيط، تتعلق هذه المعطيات بثقافة متعاطي اللغة، ومعتقدهم، وفكرهم بمستوياته المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والدينية، وما شابهها.. وغالباً ما تحدث اللغة بين متعاطيها شكلاً من أشكال الفكر والثقافة المشتركين، إن لم يكن هذا الاشتراك قائمـــا بالأصل بينهم، وعلى هذا القدر من الخلفيات المعرفية المشتركة التي تظلل المشهد القـــولي أو التخاطبي، فإنه يصبح من السهل، بل من المشروع أن يتجاوز الكلام عن قيود كثيرة توضع في بنيته الداخلية، مكتفياً بتحقيق أمن اللبس عن طريق هذا المشترك في البِنْية الخارجية للغة.

ومـــن أمـــثلة الكتاب التي تُبنى على لحظ المقام وكونه مجوّزا للخروج على البِنْية النّظمية الأصلية في الجُملة العربيّة، ما ينسبه سيبويه إلى الناس، أي أبناء اللغة، يقول: " وأما قول الناس: كان البر قفيزين، وكان السمن منوين، فإنما استغنوا هاهنا عن ذكر الدرهم لما في صـــدورهم من علمه، ولأن الدرهم هو الذي يسعّر عليه. فكأنّهم إنما يسألون عن ثمن الدرهـــم في هـــذا الموضع، كما يقولون: البر بستين، وتركوا ذكر الكرّ. استغناء بما في صدورهم من علمه، وبعلم المخاطَب، لأن المخاطَب قد علم ما يعني، فكأنه إنما يسأل هنا عن ثمن الكرّ كما سأل الأول عن ثمن الدرهم. وكذا هذا وما أشبهه، فأجره كما أجرته العرب."[٣]

---

[١] : انظر حول هذا الموضوع: سعيد حسن بحيري، عناصر النّظريّة النّحويّة في كتاب سيبويه، ١٨٠.

[٢] : حسن عون، اللغة والنّحو ، ٨٧.

[٣] : الكتاب، ٣٩٣/١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويـــبني على المثال نفسه المبرّد في مقتضبه:" وقولهم أرخص ما يكون البر بستين، تأويله: الكرّ بستين، ولكنهم حذفوا الكرّ لعلمهم بأن التسعير عليه يقع.

فكل ما كان معلوما في القول جارياً عند الناس فحَذْفٌ جائزٌ..."[١]

فعُرْفُ الناس في تبايعهم، جوّز لهم أن يحذفوا بعض أجزاء الكلام، اكتفاء بما أصبح مـــتداولا بينهم، وما أملته عليهم قوانينهم التجارية التسويقية من أعراف وزن وسعر وما أشبهها..وهذا مثال آخر لسيبويه، يندرج في السّياق نفسه، يقول: " ومثله (بيع المَلَطَى لا عهدَ ولا عقدَ) وذلك إن كنت في حال مساومةٍ وحال بيع، فتدع أبايعك استغناء لما فيه من الحال.

ومثله: مواعيدَ عُرْقوب أخاه بيثرب.

كأنـــه قال: واعدتني مَواعيد عُرقوبٍ أخاه، ولكنه ترك (واعدتني) استغناء بما هو فيه من ذكر الخُلف، واكتفاء بعلم من يعني بما كان بينهما قبل ذلك."[٢]

فضـــرب المثل بعرقوب وإخلافه المواعيد إنما هو من القدر المشترك بين أهل اللغة، فلـــيس من أحد إلا ويعرف قصة عرقوب مع أخيه ومماطلته إياه في إنجازه ما وعده، فتأتي عبارة " مواعيدَ عرقوب " على قصد : واعدتني مواعيدَ عرقوب "، لتعتب على من يقرمط في عداته[٣]، فاستغني عن ذكر الفعل الناصب لحضوره في ثقافة المتكلّمين، وما تعارفت عليه أحوالهم..

ويملـــك المحـــيط الخارجي بأبعاده كافّة من مضاء الأثر ما يجعل اللغة تستغني عن عناصر كانت في تركيب للكلام قد وضعت أصلا للتأكيد، ومما هو معلوم لدى النّحاة أن مـــا يؤتى به للتأكيد فحذفه غير جائز، لمناقضة الحذف للمراد بالتّوكيد[٤]، ومن أمثلة هذا الحـــذف الـــذي يقوّيه المقام، وإن كان مرفوضا إذا وقفنا إلى المقال وحده ما يذكره ابن جنّي: " وحذف الحال لا يحسن. وذلك أن الغرض فيها إنما هو تأكيد الخبر لها، وما طريقه طريق التّوكيد غير لائق به الحذف؛ لأنه ضد الغرض ونقيضه..

---

[١] :المبرّد، المقتضب، ٣/٢٥٤.

[٢] : الكتاب، ١/ ٢٧٢.

[٣] : انظر كذلك: ابن يعيش، شرح المفصّل،

[٤] : وهذا لدى سيبويه وغيره، انظر على سبيل المثال: الكتاب ص ؛ مغني اللبيب ص، ابن يعيش ص.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأمـــا مـــا أجزناه من حذف الحال في قول الله تعالى:{ فمن شهد منكم الشهر فليصـــمه} أي فمـــن شهده صحيحاً بالغاً، فطريقه أنه لما دلت الدلالة عليه من الإجماع والسنّة جاز حذفه تخفيفاً. وأما لو عريت الحال من هذه القرينة، وتجرّد الأمر دونها لما جاز حذف الحال على وجه."[١]

فقرينة الحذف هنا، ما أجمع عليه أهل الدين، والمشرّعون من أن الصوم فريضة على الـــبالغ القادر الصحيح، وأما من لم تتهيأ له هذه الشروط فالحكم ساقط عنه، ولا تكليف لـــه، وهذا التشريع النّصي إنما جاء بأوجز اللفظ، لما في شريعة المحتكمين إليه وسنتهم ما يفسّـــر لهم، ويحقق لهم الفهم اللازم لمقاصد النّص، وإن حذف منه هذا التخصيص بذكر الحال " صحيحاً بالغاً"؛ فإنّ لهم من الثقافة الدينية ما يجوّز هذا.

وليســـت الـــثقافة الدينية والاجتماعية والاقتصادية فحسب هي المشترك بين أبناء اللســـان والعـــرف الواحد، بل لهم من ثقافة البيئة، ومحيط الأرصاد ما يعتمدونه مشتركا يفيؤون معاً إليه، وعليه " جاز في مثل : الليلة الهلال، على تقدير حذف المضاف، والتقدير الليلة حدوث الهلال، أو طلوع الهلال، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، لدلالة قرينة الحال عليه، لأنك إنما تقول هذا عند توقع طلوعه، فلو قلت الشمس اليوم أو القمر الليلة لم يجز إلا أن يكونا متوقّعين..."[٢]

ب: في الإعراب:

يقـــول فـــندريس في كتابه المسمى " اللغة " : "والواقع أن اللغة النّحويّة المنظمة تنظيما منطقيّا لا تستقل عن اللغة الانفعالية"[٣]

ويصحح هذا التقرير المتأخّر في الزمان، نحاتُنا الأوائل، الذين وعوا – بلا مبالغة أو تكلـــف – أن البِنْـــية الأساسيّة للغة أو كما يسميها فندريس اللغة النّحويّة، أي المثالية، ليست جامدة أو منقطعة عن المؤثّرات الكلامية التداولية وما يعترضها من صور الانفعال،

---

[١] : ابن جنّي، الخصائص، ٢/ ٣٧٨.

[٢] : ابن يعيش، شرح المفصل، ١/ ٩٠.

[٣] : فندريس، اللغة، ١٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو الحياة التي تُحيط بتعاطي هذه اللغة، لهذا يذهب أحد الباحثين ليقرر مُنفعلا: " وأعتقد اعتقادا لا يخالجه ريب في أن ابن جنّي في دراسته لأحوال هذا اللسان كان مدركاً إدراكاً لا يلتبس عليه أنه يبحث في السليقة اللغوية لهذه الأمة، وأن البحث اللغوي وخصوصاً في كتاب الخصائص بحثٌ في الأصول التي كانت تضبط ملكةَ البيان عند أصحاب هذا اللسان، بل إني أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن سيبويه ومن سبقه من النّحاة ارتبط تفكيرهم النّحوي بهذا المترع الذي لا أخطئه كلما طالعتُ تراث هذه الطبقة. وهو تحليل السليقة اللغويّة، ومنازعها في الإبانة واستشفاف القواعد والقوانين التي انطوت عليها هذه السليقة."[١]

وهذا القول تؤيّده الشواهد، التي نتقرّاها في كتب النّحاة، فمما كان الحكمُ في اختيار الوجه الإعرابي راجعاً لأبناء اللغة، بناءً على مقاصدهم، وما تعارفوا عليه في أحوالهم، هذا المثال الذي يستغرق سيبويه في الكلام عليه صفحات متعددة من كتابه، "وذلك قولك: له علمٌ علمُ الفقهاء، وله رأيٌ رأيُ الأُصلاء، وإنما كان الرّفع في هذا الوجه لأن هذه خِصال تذكُرُها في الرجل، كالحِلْم والعَقل والفَضل، ولم تُرد أن تُخبر بأنّك مررتَ برجلٍ في حالِ تَعلُّمٍ ولا تَفهّم، ولكنك أردتَ أن تَذْكُر الرجلَ بفضلٍ فيه، وأن تجعل ذلك خِصْلة قد اسْتكمَلها، كقولك: له حسبٌ حسبُ الصالحين، لأن هذه الأشياء وما يشبهُها صارت تحليةً عند الناس وعلامات."[٢]

إن صفات العلم والفضل والفقه، مما أصبحت حلية وعلامة لدى أبناء المجتمع، فأصبح الأقرب إلى الفهم في أمثلة كالواردة، أن تكون صفات للمتكلّم عنهم، وليست أحوالا طارئة، فيُوجّه الإعراب بناء على هذا من النّصب إلى الرّفع، ولو أريد بها مجرد ذكر الحال المشاهدة للحظة إطلاق العبارة، لاختير النّصب وجها.

ومن الأمثلة التي تورد في هذا الباب أيضا، ما يجيء في أسرار العربيّة من قول الأنباري:" فإن قيل : كيف يُقام المفعولُ مقامَ الفاعل، وهو ضِدُّه في المعنى؟ قيل: هذا غيرُ غريبٍ في الاستعمال، فإنه إذا جاز أن يُقال: مات زيدٌ، وسُمّي زيدٌ فاعلاً، ولم يُحْدِث

---

[١] : محمد أبو موسى، دلالات التراكيب، ٧.

[٢] : الكتاب، ١/٣٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بنفســـه المـــوتَ، وهو مفعولٌ في المعنى، جازَ أن يُقام المفعولُ هنا مقامَ الفاعل، وإن كان مفعـــولاً في المعنى، والذي يَدُلُّ على أن المفعولَ ههنا أُقيم مقامَ الفاعل، أنّ الفعلَ إذا كان يتعدّى إلى مفعول واحدٍ، لم يتعدّ إلى مفعولٍ البتّة... وإن كان يتعدى إلى مفعولين، صار يتعدّى إلى مفعولٍ واحد.."[١]

فمـــنطق المـــتحدّثين باللغة وثقافتهم، تفيد بالقطع أن الميّت لا يكون فاعلا، بل مفعـــولا فحسب لقوة خارجية فاعلة، ولكن ما سوّغ مجيء الكلام على أنه فاعل وليس مفعـــولا، فـــيأخذ الرّفع لا النّصب، أن مما هو مَنطقي معروف شائع أن الميّت لا يكون فاعلا، وسهل القول بفاعليته، عدم خشية اللبس، وأمنه التام، ففاعل الموت معروف، وإن اطّردت نسبته في بنية التراكيب إلى المفعول. فهذا من التجوّز الحاصل لتحقق المعرفة وأمن اللبس. ومما يجدر ذكره هنا أيضا أن من أثر سياق الحال أو المقام على التوجيه الإعرابي أن الفاعلـــية قد فارقت معناها اللغوي الأول والمتعلّق بأن الفاعل هو من قام بالفعل، لتتخذ معنى اصطلاحيّا جديداً يكتفي بوصف مجرّد الإسناد.

---

[١] : الأنباري، أسرار العربيّة، ٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الختام

سعت هذه الدراسة إلى محاولة تلمّس أثر سياق الحال على انْبناء الجملة العربية، وذهبت إلى الوقوف على وجه العلاقة الكائنة بين وجوه الجواز النحوي وسياق الحال بعناصره المختلفة من متكلّم ومخاطَب ومحيط عام يكْتَنِف الحدث الكلامي.

وبعد طول النّظر الذي آثر أن يكشّف الأثر، بإيجاز القول في أهم ما أفضى إليه الجهد، وأن يحكم الفصول على قدر ما يُبين عن الصورة دون أن يتكثّر بذكر ما أصبح مُتعيّناً في الأفهام، متعارفا من الأحكام، خلُصت الدراسة بعد هذا إلى ملاحظ نوجزها فيما يلي:

- أحكام الجواز النّحوي هي إحدى أشكال الأحكام التي يُصدرها النحوي ليُعْطي بعض الصور الخارجة على أصل القواعد مشْروعيّتَها. وهذه الأحكام هي القسيم المقابل لأحكامٍ بالوجوب تكون أيضاً في بِنىً جمليّة مُفارِقَة لما اطّرد من البنى الأساسية للجملة العربية.
- تتعدد صور الجواز النحوي التي تأتي عليها الجمل العربية، فبعض هذه الصور يتعلّق بنظم الجملة وما يكون بين أجزائها من تعالق يتّخذ أنساقا مُعيّنة في الترتيب أو الذكر والحذف، وتتصل صور أخرى بوجوه الإعراب التي يمكن للوظائف النحوية أن تتبادلها أو تنتقل بينها.
- انطلق النّحاة في ضبطهم للغة من وصف منطوق ابن اللغة الصادر عن سليقة لا يتعمّد أن يتكلّفها، ووصفهم لهذا التّعين الكلامي كان سبيلهم إلى التحقق من البنية العقلية المُسْتَدْخلة قبلاً في وعي مجموعة الناطقين باللسان الواحد، ثمّ كان ضبطهم لمعايير هذه اللغة وقواعدها مُراعِياً للمطّرد الشائع.
- اللغة العربية — كما سائر اللغات — لغة اجتماعيّة تحرص على أداء الوظائف التواصليّة والتداوليّة بين مجموع الناطقين بها علاوة على أدائها للوظيفة التعبيرية، وهي في حرصها هذا تُراعي أن يكون مستوى الأداء ملائماً أو موائماً للظروف التي تُحيط هذا الأداء، وتتسع لفظة الظروف لتشمل ما يتعلّق

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالمتخاطبين من مقاصد وثقافات ومُعتقدات، وما يلفُّ المحيط الكلامي من شخوص يستمعون ويشاركون، ومؤثرات طبيعيّة وثقافية وما سواها.

- من أهم أشكال اجتماعيّة اللغة ومواءمتها لأحوال مستخدميها ومقاماتهم ما يكون من خروج اللغة عن بنيتها الأساسيّة وتحوّلها عن صورها العميقة إلى وجوه غير منحصِرة، تتلوّن بما يُجلّي للمقامات المتجدِّدَة أوجهاً في القول لا تخرق أصول القواعد وإنما تطوّعها بما يحقق مقاصد أبناء اللغة، وهي ما أشارت إليه الأطروحة من وجوه الجواز النحوي.
- يُعد الخروج عن أصل القواعد النظمية بالحذف أو تغيير الرتبة من أكثر صور الخروج تعاقباً على الجملة العربية، فالحذف يحقق غاية من أبلغ ما يطمح إليه العربي في نطقه، أعني التّخفيف، فما كان مفهوما ومأمون اللبس من القول وإن سقطت بعض أجزائه بالإضمار أو الحذف هو غاية ابن اللغة التي يفيء إليها، فما كان منطوقاً بالمقام استغنى عنه المقال بلا تردد.وأما تغيير الرتبة فآلية للنظم يتوخّاها النّاطق باللغة ليقدّم ما يحرص على أن يكون أول التعريف أو غايته، ويقدّم ما ملأ نفسه ووجدانه من قول لا ينتظر إلى نهاية الجملة ليّلفظ أو يبلّغ. وكذلك التأخير قد يكون للتشويق أو الإلغاز أو الإثبات بكونه آخر ما يسمع فيستقرّ لدى السامع.
- اهتمت مجموعة من المدارس اللسانية الحديثة بفكرة اجتماعية اللغة، ووظيفتها التواصليّة التداوليّة، من هذه المدارس حلقة براغ اللغوية، والاتجاه البراغماتي، والوظيفي، والنّسقي، ولكنّ أهمها المدرسة الإنجليزية التي يتزعّمها فيرث، عالم اللغة الذي صاغ نظرية سياق الحال مستفيدا بجهد الانثربولوجي مالينوفسكي، هذه النظريّة التي أثْرت وأثّرت في صيرورة الدرس اللساني الحديث، وأخرجته من انغلاقه على النّص، واعتباره بنية منقطعة عن محيطها، وأعادت للغة حياتها بإعادتها للتأثير والتأثر بسياقاتها الحيّة المختلفة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عـــلى الرّغم من أن النحاة العرب القدماء لم يظهر أن من همّهم صوغ نظرية لســـانيّة يعـــتمدونها في مقاربة اللغة ووصفها وضبط قواعدها، إلا إن مشابه عديدة قريبة الحدس والفهم إلى الأنظار اللسانية في المدرسة السياقيّة والوظيفيّة ظهرت متناثرة في مصنّفاتهم، وتفاوت إلحاحها عند عدد منهم، فممن ظهرت عنده هذه الإلماحات على استحياء أو كانت عجلى في تقريرها، إلى من ثبتت لديه الرؤية لتَكون أشْبه شيء بنظرية متكاملة مستبطنة في حسّ العالِم المرهف، الـــذي لم يُحـــرم من العام أو الكوْني من النظر اللساني. وإن مثّلنا لهذا الأخير بسيبويه وابن جنّي لكان حسبنا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر

- الأنباري، أبو البركات كمال الدين (ت: ٥٧٧هـ)، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويين البصريين والكوفيين، قدّم له وعلّق عليه: حسن حمد، بإشراف: إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
- ــ، أسرار العربيّة، تحقيق: بركات يوسف هبّود، دار الأرقم للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
- الجاحظ، عمر بن بحر بن محبوب الكناني البصري (ت: ٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تحقيق وشرح:عبد السلام هارون، دار الجيل، لبنان. د.ت.
- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت: ٤٧٤هـ)، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط١، ١٩٩١م.
- ــ دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط٣، ١٩٩٢م.

-ابن جنّي، أبو الفتح عثمان (ت٣٩٢)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٥٢.

-ــ، اللمع في العربيّة، تحقيق: فائز فارس، دار الكتب الثقافية، الكويت، ط١، ١٩٧٢.

- أبو حيّان الأندلسي: البحر المحيط
- الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، الجمل في النّحو، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٩٥.
- الرضي، محمد بن الحسن الاستراباذي (ت: ٦٨٦هـ)، شرح كافية ابن الحاجب، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- الزركشي، محمد بن عبد الله الزركشي (ت:٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٩٨٠.
- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر (ت: ٥٣٨هـ)، أساس البلاغة، مكتبة لبنان ناشرون، بيوت، ط١، ١٩٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل النّحوي البغدادي (ت: ٣١٦هـ)، الأصول في النّحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧.
- السهيلي، نتائج الفكر في النّحو، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (ت١٨٠هـ)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١.
- السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ترجمه وضبطه وصححه: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، دار الجيل ودار الفكر، بيروت.
- ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمذاني (ت: ٦٧٢هـ)، شرح ابن عقيل، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٥م.
- القزويني (٧٣٩هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، تعليق وتحقيق: محمد السعدي فرهود وآخرون، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط٦، ١٩٩٩.
- الكفوي، الكليات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ط٢، ١٩٨٢.
- ابن كليكلدي، صلاح الدين أبو سعيد خليل بن عبد الله العلائي الدمشقي الشافعي (ت ٧٦١هـ)، الفصول المفيدة في الواو المزيدة، تحقيق: حسن موسى الشاعر، دار البشير، عمان، ١٩٩٠.
- المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت: ٢٨٥هـ)، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).
- مجمع اللغة العربيّة، المعجم الوسيط، دار الدعوة، تركيا، ط٢، ١٩٨٩.
- ابن منظور: لسان العرب
- ابن هشام، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف الأنصاري (ت: ٧٦١هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق وتعليق: مازن المبارك، محمد علي حمد الله، مراجعة: سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

-

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شـــرح قطرالـــندى وبـــل الصدى، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ط١١، ١٣٨٣هـ

- ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي (ت: ٦٤٣هـ)، شرح المفصّل، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).

ثانيا : المراجع

- إبراهـــيم مصـــطفى، إحياء النّحو، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: القاهرة، ١٩٣٧م، ١٩٥٩م.
- أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربيّة الوظيفي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٦م.
- ـــــــــــ، الوظائف التداولية في اللغة العربيّة،دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٥سم.
- ـــــــــــ، المنهج الوظيفي، ضمن قضايا المنهج في اللغة والأدب، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٧.
- أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق.
- بوجمعـــة الأخضر، التفكير اللساني العربي القديم (تساؤلات حول إعادة القراءة)، ضمن قضايا المنهج في اللغة والأدب، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٧.
- تمام حسان، اللغة العربيّة معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، ...
- تمـــام حسان، الأصول(دراسة ابستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م.
- جون ليونز، اللغة والمعنى والسّياق، ترجمة: عباس صادق الوهاب، مراجعة:يوئيل عزيز، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧.
- ـــــــــــ، اللغـــة وعلـــم اللغة، ترجمة: مصطفى التوني، دار النهضة العربيّة ، القاهرة، ١٩٨٧.
- حســـن عون، اللغة والنّحو ، دراسات تاريخية وتحليلية ومقارنة ، مطبعة رويال ، الإسكندرية ، ط١، ١٩٥٢م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- حلمي خليل، مقدمة لدراسة اللغة، دار القلم، دبي، ط١، ١٩٨٩.
- دي سوســـير، دروس في الألسنية العامة، ترجمة: صالح القرمادي، محمد الشاوش، محمد عجينة، الدار العربيّة للكتاب، ١٩٨٥.
- ر.هـــ. روبـــنز، موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، ترجمة: د.أحمد عوض، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٧.
- روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩٨.
- ســعيد حسن بحيري، دراسات لغوية تطبيقية في العَلاقة بين البِنْية والدلالة، مكتبة زهراء الشرق،١٩٩٩.
- ـــــــــــــــــ، عناصـــر النّظريّة النّحويّة في كتاب سيبويه (محاولة لإعادة التشكيل في ضوء الاتجاه المعجمي الوظيفي)،مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، ١٩٨٩.
- السيّد أحمد علي محمد، تسليط العامل وأثره في الدّرس النّحوي، دار الثقافة العربيّة، القاهرة، ط١، ١٩٩١.
- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢.
- طارق النعمان، اللفظ والمعنى بين الأيدلوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، سينا للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٤.
- طاهر سليمان حمّودة، ظاهرة الحذف في الدّرس اللغوي،
- عـبد الســلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربيّة، الدار العربيّة للكتاب، ليبيا – تونس، ١٩٨١.
- ـــــــــــــــــ، اللســانيات وأســسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤.
- عــبد العزيــز عبده أبو عبد الله، المعنى والإعراب عند النّحويين ونظرية العامل، منشورات الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع، طرابلس- ليبيا، ط١٩٨٢،١.
- عــبد القــادر المهيري، وآخرون، أهم المدارس اللسانية، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية.
- ـــــــــــــــــ، وآخــرون، الــنّظريّة اللسانية والشعريّة(في التراث العربي من خلال النصوص)، الدار التونسيّة للنشر، ط١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عبد الكريم مجاهد، الدلالة اللغوية عند العرب، دار الضياء.
- عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربيّة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.
- عدنـــان بن ذريل، اللغة والدلالة (آراء ونظريات)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨١.
- عـــزّ الدين مجدوب، المنوال النّحوي العربي(قراءة لسانية جديدة)، كلية الآداب، سوسة، دار محمد علي الحامي، تونس، ١٩٩٨م.
- علي أبو المكارم، أصول التفكير النّحوي، منشورات الجامعة الليبية، ١٩٧٣.
- فاضـــل السّـــاقي، أقســـام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٧٧.
- فاضل السامرائي، معاني النّحو، دار الفكر للطباعة والنشر، عمّان، ط١، ٢٠٠٠م.
- فان دايك، النص والسّياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي التداولي)، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق.
- فـــندريس، اللغـــة، تعريـــب: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٠.
- فولفـــانج هاينه من و ديتر فيفهيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة: فالح بن شبيب العجمي، مطابع جامعة الملك سعود،الرياض، ١٩٩٩.
- كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٨٥م.
- كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي (مدخل)، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٣، ١٩٩٧.
- مـــازن المـــبارك، معجم المصطلحات اللسانية (فرنسي.إنجليزي.عربي)، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٥.
- محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجُملة العربيّة، دار الشروق،القاهرة، ط١، ١٩٩٦.
- ـــــــــــــــــــــ، الـــنّحو والدلالـــة (مدخـــل لدراســـة المعنى النّحوي- الدلالي)،دار الشروق،القاهرة، ط١،٢٠٠٠.
- محمد سمير نجيب اللبدي، معجم المصطلحات النّحويّة والصرفية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٥.
- محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النّظري، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- محمد مفتاح، مجهول البيان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١٩٩٠،١.
- محمـــد أبو موسى، دلالات التراكيب (دراسة بلاغية)، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٧٩.
- محمود السعران، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) ،دار النهضة العربيّة، بيروت.
- مصـــطفى حمـــيدة، نظـــام الارتـــباط والربط في تركيب الجُملة العربيّة، الشركة المصرية العالمية للنشر– لونجمان، ط١، ١٩٩٧.
- مصطفى لطفي، اللغة العربيّة في إطارها الاجتماعي.. دراسة في علم اللغة الحديث، معهد الإنماء العربي،١٩٨١.
- المنصف عاشور، بنية الجُملة العربيّة بين التحليل والنّظريّة، منشورات كلية الآداب بمنوبة، ط١٩٩١،١.
- ـــــــــــــــ، نظرية العامل ودراسة التركيب (ضمن صناعة المعنى وتأويل النص)، منشورات كلية الآداب بمنوبة، ١٩٩٢.
- نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ١٩٩٤.
- ـــــــــــــــ، النص، السلطة، الحقيقة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٥.
- نهـــاد الموســـى، قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث، دار الفكر، عمّان، ط١، ١٩٨٧.
- ـــــــــــــــ، نظـــرية الـــنّحو العربي في ضوء مناهج النّظر اللغوي الحديث، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، عمّان، ط١، ١٩٨٠.
- هدســـون د.، علـــم اللغة الاجتماعي، ترجمة: محمود عياد، نصر حامد أبو زيد، محمد أكرم سعد الدين، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م.

ثالثا: الدوريات

- أحمد العلوي، آية الفكر وكبرياء النّظر، الموقف، الرباط، ع١٩٨٧،١.
-أحمد العلوي، أسس منهج البحث في اللغويات العربيّة، مجلة كلية الآداب والعلوم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإنسانية، فاس ، ع١، ١٩٧٨.

- أحمـــد المتوكل، مبدأ الوظيفية وصياغة الأنحاء، مجلة المناظرة، السنة٢، العدد٣، ١٩٩٠.
- جـــون ليونز، ما معنى نظرية المعنى عند فيرث، ترجمة: عبد الكريم مجاهد، آفاق عربية، كانون الأول ١٩٩٠.
- مصـــطفى غلفـــان، الإشـــاريات والمقـــام التواصلي، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، ع٢، ١٩٨٥.
- مصـــطفى غلفـــان، نحو علاقة جديدة بين اللسانيات ومناهج تحليل النص الأدبي – ملاحظـــات حـــول تحلـــيل لغة المعنى– ، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الحسن الثاني ، الدار البيضاء ، ع٣، ١٩٨٦م.
- نهـــاد الموسى، الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية في العربيّة، المجلة العربية للدراسات اللغوية، الخرطوم، مج٤، ع١، ١٩٨٥.
- نهاد الموسى، الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في كتابه، مجلة حضارة الإسلام، دمشق، ١٩٨٤.
- يحيى أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الثالث، الكويت، ١٩٨٩م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعًا: الرسائل الجامعية

- عطـــا محمد موسى، مناهج الدّرس النّحوي في العالم العربي في القرن العشرين، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٢.
- لطـــيفة الـــنجار، منزلة المعنى في نظرية النّحو العربي، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٥م.
- محمـــد علـــي عبد الله، الجواز في النّحو العربي، رسالة دكتوراة، جامعة دمشق، ١٩٩٤.

_ محمـــود الجاسم، التأويل النّحوي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، رسالة ماجستير، جامعة حلب، ١٩٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

OPTILONAL GRAMATICAL ROLES AND THE CONTEXT OF SITUATION

Prepared by: OLA M. M. DHUHAIR

Supervised by: Dr. Nihad al-mousa

This study aims at investigating an aspect of grammar in Arabic; namely, optional grammar rules and the context of situation.

This aspect took a main position in the Arab grammarians works, they described Arabic and established its rules with regard to the fact that there were many optional forms in parsing and words sequences which differ from sentence basic structure. There were different, linguistic and non-linguistic reasons, for this phenomenon, one of which is the context of situation.

The study falls into three chapters: the first chapter deals with optional grammar principals in Arab grammarians' works, while the second chapter considers the context of situation in old and modern linguistic studies. Finally the third chapter seeks the relationship between grammar optional principles and the context of situation in Arabic grammar tradition.

The research try to approach the old grammatical project through modern linguistic perspective and in the light of different functional trends and schools. My aim is to reveal objectively the outstanding efforts of the old Arab grammarian in description of structure and rules which enable us to see features of a comprehensive found, later on , by De Saussure , Firth and others .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit